

معهد مولاي الحسن

عبد الله كنون

واحدة الفكر

طوان 1367 = 1948

عبد الله كفوف

واحدة الفكر

1367 :: 1948

المطبعة المهدية - محمد الطريس 19 تطوان (المغرب)



واحة الفكر

نفر من صخب الحياة وضواؤها الى صمت الطبيعة الحكيم
وسكوتهما البليغ.

ونفر من جلبة النهار الى هدأة الليل ومن ضغط الجو
في المدينة الى الهواء الطلق في القرية.
ونفر من حمارة القيظ في الصحراء القاسية الى حيث الظل
الظليل والهواء العليل في الواحة الحنون.

فاذا أجهدنا الفكر وأضجرنا النظر وسطا الخمود على
نشاطنا العقلي فاندنا نفر الى هذا الادب فنحس الجمام والمتعة والقوة
انه وادي عبقر، نلتقي فيه بظلال انفسنا أشخاصا مائلة
امامنا تتحدث الينا ونفهم عنها، فكم تكشف لنا من اسرار يعجز
عن ادراكها تفكيرنا المقيد بقواعد المنطق وكم تظهرنا على
عوالم سحرية تتلمح أثارة منها في عالم الرؤيا العجيب.

في فجاج ذلك الوادي الغسيح نسمع نغما موسيقيا عذبا،
ونشاهد اهيكل ربابيا تنتصب فيه تماثيل من الحقائق العليا،
وننعم صلاة الفكر فيخشع الضمير وتحلق الروح في الاجواء غير
المنظورة حيث ترود مستقر الخلود في عالم الطهر والقداسة.
ولانها رحلة على مثل جناح البراق فان اولها هو منتهاها
وهكذا تستمر الريادة ويستمر معها السمو ولا دهبوط من المحل
الارفع، الذي تحدث عنه الشيخ الرئيس!

وفي الشعب الشجر من واحة هذه، تمثل مواكب
الامل وأطيايف الذكرى رائحة غادية ولحركاتها هزيج كألحان
الملائكة ولالتفاتها بريق كضحات العذاري فكلما تطلعننا الى
جمالها الريان بارواحنا الظامئة هبت علينا نسيمات منعشة من
عطره الفواح فجذبتنا اليه فلا نشعر الا ونحن صرعى تحت
إغواء بريء!

هذه هواية تضمحل أمامها جميع هواياتنا المختلفة، ولا
ندري اذالك من قوة تأثيرها فقط ام لانها هي هوايتنا الحقيقية؟
وكما يتبارى الندامى في حضرة الشراب فيستحثون الكؤوس
كلما زادت نشوتهم فان الاديب يتطلع من حوض المعرفة وتقيض
جامه حتى تسيل وهو مع ذلك يستسقى كالهامة، فان لم يكن
كذلك فهو دعى مدع في هوى ليلى ووصلها.
واذن فهل من يقرأ للمشاركة الادبية ويتأدب للترف
العقلي يكون ادبياً؟

لا يا سيدي! فان الادب رسالة أسمى من هذه الارضيات
واعمق من هذه السطحيات!

اننا ما فررنا اليه الا لاننا نعتده طب القلوب وبلسم
الارواح فالعالم يستريح اليه من جهود تجاربه المضنية، والفيلسوف
يصبح أوهامه فيه، والرياضي والطبيب كلاهما يروضان به
أعصابهما الثائرة وأفكارهما المضطربة!

إن دعوته لتدخل الى اكواخ الفقراء وقصور الاغنياء فتملاً

نفوس اولئك بالرضى والتسليم وتفتح قلوب هؤلاء للعطف
والمرحمة. وانها لتستحيل الى يد رفيقة تربت على اكتاف
الحزاني فتلاشى احزانهم وتشعرهم بالغبطة والسرور وتمسح
دموع الثكالى فيجدين لها برداً وسلاماً وتنزل السكينة على
قلوبهن!

نحن نبخس الادب حقه اذا اعتبرناه ملهارة نقل بها الوقت،
وضرباً من ضروب الكمال في حياتنا العقلية على حين انه
روح الثقافة وجوهر المعرفة. واذا كنا نستجم به النفس من
عناء الفكر فلان ضرورات الحياة من سياسية واجتماعية وغيرها
لا تكاد تسلمنا اليه الا على حالة من الاجهاد لا توصف.
فهنيئاً لمن صافهم الزمن فتمتعوا بجو الواحة الرائق ولم
يكابدوا سموم الصحراء اللانح!....



المسلمون والنبي

بعض الباحثين شغفوا بالاغراب ليقال عنهم انهم مجددون حتى اذا لم يواتهم الموضوع الغريب عمدوا الى الشيء يكون من الشهرة بالمكان الذي قالت فيه الخنساء «كانه علم في رأسه نار» فألبسوه حلة الغرابة بالرغم عنه وفرضوا على الناس فرضا ان يعتقدوا انه شيء غريب يعني جديد مبتكر على غير مثال سابق.

من هؤلاء الدكتور زكي مبارك الذي زعم ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا زال لم يدرس من ناحيته الانسانية وان المسلمين لم ينظروا اليه الا على اعتبار انه رسول مؤيد من الله في القول والفعل لا ياتي شيئا ولا يذره الا بوحى من السماء فهو بذلك مجرد او كالمجرد من صفة الانسانية في جميع افعاله وتصرفاته(1).

ما ادري هل يجد الدكتور ام يهزل؟ فاما اذا كان يهزل فان هزله غير المفهوم كان اخرى به ان يتناول موضوعا آخر غير موضوع الرسول، وهو الذي يريد ان يكون مومنا تقيا لا يمنعه من اعلان تقواه الاتجا فيه عن الرياء وما اليه. واما ان

(1) انظر مقاله «النواحي الانسانية في الرسول» بالعدد الممتاز من مجلة «الرسالة» المصرية رقم 297 وقد نشر هذا الرد بعدد ممتاز من جريدة «المغرب».

كان يجد فيظهر انه نسي مراجع السيرة النبوية من القرآن
والحديث وغيرها وبني حكمه على بعض ما يرد في الاشعار
الصوفية والقصص المولدية ونحوها. وتقول نسي فقط ولا نقول
انه يجهل تلك المراجع لانا نعلم انه قد درسها او بعضا منها في الازهر
لما كان «الشيخ» زكي مبارك قبل ان ينال شرف الدكتوراه
التي اركبته هذا المركب الصعب.

«لقد جاءكم رسول من انفسكم، هذه الآية وحدها كانت
ولا زالت تمنع المسلمين من اعتقاد شيء مما توهمه الدكتور
في الرسول ومع ان بعضهم قراها بفتح الفاء فان احدا لم
يفهم من تلك القراءة الا ان الرسول هو من انفس العرب اي
اشرفهم حسبا ونسبا.

وفي الآية الاخرى «وقالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا
من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار
خلالها تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي
بالله والملائكة قبلا او يكون لك بيت من زخرف او ترقي في
السماء ولن نومن لرقبك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل
سيحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا» فلم يقتصر على اثبات
عجزه عن الاتيان بهذه الامور التي طلبوها منه بل اكد ذلك
بالتعجب من طلبهم منه وهو بشر مثلهم ما لا يطيق، والمسلمون
الذين قرأوا ويقرأون هذه الآيات التي تنادي بانسانية الرسول
وكونه بشرا من الخلق لا ينسون هذه الحقيقة الا اذا نسوا.

آيات الله ولا يعتقدون خلافاً في حقه الا اذا لم يبقوا مسلمين
فيكف يمكن ان تقوم دراستهم له على غير هذا الاساس او
ينظروا اليه نظرة مجردة عن هذا المعنى وهو مبدأ ايمانهم به
وغاية علمهم فيه :

فمبلغ العلم فيه انه بشر وانه خير خلق الله كلهم
«عفا الله عنك لم اذنت لهم» هذا ضرب آخر من الخطاب
الكريم الذي يعرف به المسلمون ان الرسول هو انسان مثلهم
يخطي ويصيب وليس كما ينسب لهم الدكتور انه لا يعمل
عملاً الا باذن من الله، اذ لو كان كذلك لما عاقبه الله عز
وجل ولو بهذا الاسلوب اللطيف الذي اخبره فيه بالصفح قبل
ان يخبره بالعتب.

ومثله ايضا قوله تعالى «ما كان لنبي ان يكون له اسرى
حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة
والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم
عذاب عظيم».

واعظم من هذا وذلك قوله تعالى في حقه «عسى وتولى ان
جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى
اما من استغنى فانت له تصدى وما عليك الا يزكى واما من
جاءك يسعى وهو يخشى فانت عنه تلهى» فهذه الآية التي تثبت
اكثر من غيرها بشرية الرسول وتقرر طبيعته الانسانية ابلاغ
تقرير، لن يغفل المسلمون عنها اصلاً لا سيما وهي تلفت نظرهم

الى ان تصرفا عاديا مثل هذا قد استحق عليه الرسول ذلك العتاب المر وان كان هو على ما يرى بعضهم انما فعله تاليفا لذلك الغنى واملا بدخوله في الاسلام.

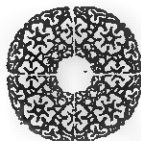
واخيرا الم يقل الرسول في حديثه « لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى ولكن قولوا عبد الله ورسوله » وقال « انما انا عبد آكل كما ياكل العبد واجلس كما يجلس العبد » وقال « انما انا بشر وانكم تختصمون الي فلعل بعضكم ان يكون ألحن بحجته من بعض فاقضى له على نحو ما اسمع » وقال « انما انا بشر مثلكم وان الظن يخطي » ويصيب ولكن ما قلت لكم قال الله فلن اكذب على الله » وقال « والله وانا رسول الله ما ادري ما يفعل به او بي » وقال « يا عائشة ما لي وللدنيا اخواني من اولى العزم من الرسل صبروا على ما هو اشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاکرم ما بهم واجزل ثوابهم فاجدني استحيى ان ترفهت في معيشتي ان يقصر بي غذا دونهم وما من شيء هو احب الي من اللحوق باخواني واخلائي » فهو ينهي عن اطرائه كاطراء النصارى لعيسى ، ويتواضع حتى يتشبه بالعبد ويقول انه لا اطلاع له على الباطن وانما يقضي بحسب الظاهر وان ظنه يخطي ويصيب وانه يجهل عاقبة الامر والجزاء ويعمل لادراك غايات النبيين من قبله ، فكيف ترى المسلمين الذين تناقلوا عنه هذه الاقوال وخلافها مما لم نشأ ان نكثر به يغفلون عنها ويتناسونها فلا يعتبرون

فيه الا جانب النبوة والرسالة ويلغون صفة الانسانية والبشرية؟
ومتى كان المسلمون يعملون اقوال نبيهم ويمرون بها هكذا من
الكرام وهم قد كتبوا عليها من الشروح والتفاسير واستنبطوا
منها من الاحكام والحكم ما يبهز العقول ويحير الالباب؟
وبناءً على ذلك يقرر المسلمون ان النبي «انسان» اوحى
اليه بشرع، فجعلوا جنس الجد انساناً، ثم عللوا ما يصيب النبي
من المصائب الدنيوية وما يلحقه من اذى شرار الخلق بان
حكيمته تسلية المؤمنين وتاسيهم به في مثل تلك الاحوال اذ انهم
بشر مثله في الانسانية وان لم يبلغوا درجته في الاختصاص فاحرى
ان يصيبهم مثل ما اصابه من الازى والضرر فيصبروا ويحتسبوا.
واذاً فهل فرق ما بين عامة البشر والرسول عند المسلمين
الا ما اشار له في الآية الكريمة «قل انما انا بشر مثلكم يوحى
الي؟» بل لقد اشار الرسول الى مزية البشرية المجردة في بعض
الاحوال بقوله: «انتم اعلم بامر دنياكم» فمن اين يتطرق الخطأ
للمسلمين مع هذه الصراحة العظمية؟

وهل اناك نبياً انت الرسول لم يهناً باتصافه بصفة النبوة
وحده ولم يعجبه اختصاصه بهذه الفضيلة دون سائر البشر
فرضخ لهم منها بقدر ما يحتاجون اليه في امورهم الخصوصية
وبعض الضرورات الادبية والتربوية فقال «الرؤيا جزء من ستة
واربعين جزءاً من النبوة» وقال «ان من امتي ملهين» وقال
«الحلم والتؤدة والقصد من اخلاق النبوة» وبهذا تعرف نظر

النبي نفسه الى النبوة فإنها حالة صادقة من التلقي والتخلق
ليس غير وكذلك يفهمها المسلمون وان نسب اليهم الدكتور
خلاف ذلك. فياليت له لم يكن صاحب هذا الرأي بل كان صاحبه
هو (فنسك) او (لامنس) اذا لهان الخطب.

وبعد فان كان الدكتور زكي مبارك يقصد بالمسلمين
الذين لا يفرقون بين رسالة النبي وانسانيته، هؤلاء الشعراء
المتصوفين الذين يجمعون في اقوالهم بين المبالغة والغلو والايغال
او قصاص الموالد الذين يعتمدون التأثير على العامة بانواع
الخوارق والمعجزات فانه يعلم حق العلم ان كلام كل من
الفريقين ليس مما يعتمد في النقل ولا يثبت عند النقد.



تاريخ حياة معدة لتوفيق الحكيم

لا يفهم القاري^١ انه امام كتاب تاريخ حقيقي يسجل الحوادث بضبط ويستعرض الوقائع بامانة، اذن فيكون يجهل توفيق الحكيم الكاتب الموهوب والفنان المقتدر الذي ورث النبي ولم يشتمل كتابه على رقم تاريخي واحد ولو كان رقم سنة الطبع.

انما هذه فكاكات وملح مما يروى في التطفيل واخبار الطفيليين جمعها المؤلف في نسق واحد وحاول ان يجعل منها قصة واحدة يكون «اشعب» الطماع بطلها ولم يخلها من ذكر الحب والحبوبة كما قسمها تقسيم القصص الى فصول، ولكن كل ذلك لم يجعل منها قصة متلائمة الاجزاء مرتبطة الاطراف ذات عقدة ينتظر حلها بمهارة وحذق كما يجب ان تكون القصة فان حوادث الفصل الواحد قد يضطر المؤلف الى بذل جهد ظاهر للتوفيق بينها وترتيب بعضها على بعض فما بالك بالفصول التي تستقل في غالبها ولا يكون بينها ارتباط ما او تسلسل اللهم الا وحدة الموضوع الذي هو التطفيل دائما.

ولا نقول ان الفن خان صديقه او تركه في هذه المرة، فان توفيق الحكيم وان سمي كتابه هذا في مقدمته «قصة» يعرف ان اسم القصة الاصطلاحي لا ينطبق عليه ولهذا تفنن في اسمه فدعاه «تاريخ حياة معدة» اذ سلب لفظة تاريخ دلالتها

المطابقة كما يفعل الفن بكثير من الالفاظ في كثير من الاحيان ولم يدعه «حياة معدة» فقط ليلا يتمحض للرواية الخالصة فبقي التاريخ هنا «كالتجريد» للاستعارة الذي يلائم المستعار له كما يقول اهل البيان وكان هذا الاسم من لطيف اقتنان توفيق الحكيم.

نعم ان هناك اشياء لا نوافق المؤلف عليها منها ان ينسب كثيرا من وقائع التطفيل ونوادير اصحابه لاشعب ورفيقه (عند المؤلف والا فبينهما بون بعيد في الزمن) بنان. ومع انه تقدم بنان الى عصر اشعب فجعله رفيقه وقرن بينهما في كثير من احوال العيش وانواع التحايل على الطعام وموائد الكرام، فانه تاخر باشعب الى ما بعد عصره بكثير وجعله يحيى في عهد المامون بالصراحة وما بعده بالتلويح كما يفهم مما نسب اليه من اخبار واشعار لغيره ممن نعرف تاخرهم عنه. على انا قد نقبل - لوجه الصنعة الفنية - ان ينشد اشعب او ان ينحل ما لغيره ولو تاخر عنه الا اننا لانقبل ان يقام غير مقامه في حضرة ملك لم يعيش في عصره، وذلك في كتاب يطلق عليه ولو مسامحة «تاريخ».

فكان على المؤلف ان يعدد اشخاص الرواية ويجعل حوادثها تقع في جيلين او ان يكتفي بحوادث اشعب وينحله ما لم يعرف صاحبه من غير حوادثه واما الواجب الحتم فهو ان

لا يذكر أسماء أشخاص يعرف الجميع ان الشعب لم يعاصروهم
وانهم لم يعاصروه.

وناحية اخرى لا تغفل التنبيه عليها وهي هذا الخطأ في
الاعراب الشائع في الكتاب. ولا يقل لي احد ان هذا امر
هين، فما هو بالهين في حق كاتب يعد من الاعلام وهل يتم
الفن الا اذا كان جامعاً لشرائط الحسن حتى الكمالي منها.
بل انه انما يتحقق وجوده بهذا الكمالي الذي لا يمكن التهاون
به اصلاً. والله در العقاد اذ يقول في كتاباته اننا لا نرى كاتباً
غريباً يتساهل في اتباع قواعد لغته تسامياً بفنّه عنّا او تجاهلاً
لها فنحن كذلك يجب ان نكون.

فمثلاً هذا الشطر: ما زلت اخذ روح الدن من لطف
صوابه في لطف.

وهذا الشطر: والدن مطرح جسم بلا روح
صوابه والدن مطرح جسم بلا روح
ومثل هذا التصحيف وارد خطأ في كلام المؤلف
وهذا البيت:

انا التي لم ير مثلي بشر كلامي اللؤلؤ حين ينتشر

ظاهر ان صواب كلمته الاخيرة ينشر
وقوله «ذراعين الى داخل خير» صوابه ذراعان. وقوله
«وليس يناديه الاتجار عمله مستورون» صوابه مستورين

وهذا البيت:

هذا محبك مطوى على كمده حرا مدامعه تجري على جسده
صوابه:

هذا محبك مطويا على كمده وجدا وأدمعه تجري على جسده
كما نحفظه أو حزنا مدامعه أو حري مدامعه مما يمكن
أن يكون تصحف على المؤلف.

إلى غير ذلك مما يشغل تتبعنا له وعلى كل حال فقد
جمع المؤلف من أطايب أخبار التطفيل ما جعل كتابه شهيا
يلتزمه القاري المنهوم في ساعة وبعض ساعة وإن كان لم
يمزج بينها ويخلطها حتى تكون عجينة واحدة كما زعم هو.



قنون من القول يسبق لها اهل الاندلس

لا مشاحة في ان اهل الاندلس كانوا قد تمكنوا من
ناحية اللغة وظهروا على امرها فتصرفوا فيها احسن التصرف
وانقادت اليهم كل الانقياد فتغننوا في اساليب الكلام ما
شأوا ولم يبق باب من القول لم يطرقيه شعرا كان او نثرا
حتى لقد شأوا في بعض الصور البيانية المشاركة انفسهم الذين
هم ارباب اللسن والفصاحة وعندهم اخذت اللغة وبارضهم نزل
الوحي. وحسبك دليلا على ذلك ابيات ابن عبد ربه التي لما
سمعها المتنبي قال «ايه يا ابن عبد ربه! لقد تأتيتك العراق حبوا»
وهي هذه:

يا لؤلؤا يسبي العقول انيقا	ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله	درا يعود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه	الفيت وجها في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة	ما بال قلبك لا يكون رقيقا
وهذا شعر فحل من فحولهم وعبقري من رجالهم فما	
قولك في شعر سيدة من عقائلهم يدعيه اهل المشرق وينتحلله	
ادباؤهم مع وصفهم شعر المرأة بالضعف اية كانت لم يستثنوا	
من ذلك الا الخنساء؟ وهذه السيدة هي كذلك خنساء المغرب	

حمدونة بنت زياد المؤدب من وادي آش، وهذا الشعر هو قولها:
ولما ابى الواشون الافراقنا وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على اسماعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وانصاري
غزوتهم من مقلتيك وادمعي ومن نفسي بالسيف والسيل والنار
وقولها وهو مشهور

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنى علينا حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمأزالا الذم المدامة للنديم
يصد الشمس انى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذاري فتلمس جانب العقد النظيم

وكلا الشعرين من شواهد علم البلاغة كما يعرف
المتادبون وكلاهما ايضا مما انتحله او نحله هذا المدعو بالماناري،
ولكن كتاب الاندلس ومؤرخي ادابها قد نبهوا على ذلك
الانتحال، وناضلوا عن صاحبة الحق فيه ابي نضال، واذا دل هذا
على شيء فانما يدل على موهبة اهل الاندلس وابداعهم في
الشعر والخيال، بما قصرت عنه هم فرسان هذا المجال.

وكل هذا مقبول ومنقول، ومعروف وموصوف؛ اما
الذي قد يخفى على الناس ولا يكاد يتنبه له الا الخاصة من
الباحثين، فهو فنون من القول سبق اليها الاندلسيون فلم
يتاثروا فيها احدا واقوا بها على غير مثال تقدم فاصبحت تعد
من اختراعهم وتحسب من ابتداعهم الذي اغربوا به على من

سواهم من الاقطار العربية، ولم يسع اهلها ولو كانوا من
اعرق الناس في البلاغة والادب كاهل العراق الا الاعتراف
بفضلهم بذلك والتنويه بشأنهم وتأثر خطاهم والنسج على
منوالهم ولأجل الايفاح نقسم الكلام في هذا الغرض الى ثلاثة اقسام:

1 (الشعر

2 (النثر

3 (النظم

فاما الشعر فانه فضلا عما لهم فيه من الصور والمعاني
المستطرفة المستجادة قد ابتكروا فيه ابتكاريين احدهما في
المعنى والآخر في اللفظ. فالذي في المعنى غرض جديد من
اغراض الكلام اضافوه الى الشعر العربي واكثروا فيه القول
حتى صار عندهم بابا مستقلا من ابواب الشعر لم يرو لغيرهم
من شعراء الاقطار الاخرى فيه شيء* ولم يفتن له ادباء العربية
الا في العصر الاخير، عصر الانبعاث العربي، وهذا هو الشعر
الوطني السياسي، وقد افردناه ببحث نشرناه منذ مدة فلا حاجة
بنا الى بسط القول فيه الآن.

والذي في اللفظ ما توفقوا اليه من ابتكار الموشحات التي
كانت تجديدا حقيقيا في اسلوب الشعر العربي وطريقة نظمه
يعرفه كل معان للنظم على ما يوجبه العروض والقافية من
قيود وشروط حتى بذلك تأخر الشعر العربي عن مجاراة
اشعار الامم الاخرى في بعض الاغراض التي يستحيل على الشاعر

العربي النظم فيها متقيدا بقيد القافية الثقيل كالملاحم والقصص والتمثيل . وبالعكس فانه بالموشح يمكنه ان يستوفي جميع هذه الاغراض ويطيل قصيده ما شاء من غير ان يشعر بعجز او كلل في الوزن او القافية بل يكون قد تفنن فيهما معا بما يزيد شعره سلامة وعذوبة ومكن لقارئه من تذوق معانيه وتفهم اغراضه في غير حرج ولا عناء .

قال الشيخ ابو الخطاب بن دحية « الموشحات هي زبدة الشعر ونسبته ، وخلاصة جوهره وصفوته ، وهي من الفنون التي اغرب بها اهل المغرب على اهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضيء المشرق » .

وقال ابن خلدون « واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التثنيق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ينظمونه اسماطا اسماطا او اغصانا اغصانا يكثررون من اعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عدد قوافي تلك الاغصان واوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة . واكثر ماتنتهي عندهم الى سبعة ابيات ويشتمل كل بيت على اغصان عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيه ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه . وكان المخترع له بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر واخذ عنه ابو عبد الله احمد

ابن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر
وكسدت موشحاتهما فكان اول من برع في هذا الشأن
عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وقد ذكر
الاعلم البطليوسي انه سمع ابا بكر بن زهر يقول كل الوشاحين
عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له:

بدرتم شمس ضحا غصن نقا مسك شم
ما اتم ما اوضحا ما اورقا ما اتم
لاجرم من لمحا قد عشقا قد حرم

ثم ذكر ابن خلدون جملة من الوشاحين الذين اتوا
بعد عبادة الى ان بلغ الى ابي بكر بن زهر فذكر موشحه
الفريد المشهور عند اهل المشرق قبل اهل المغرب وهو :

ما للمولاه	من سكره لا يفيق	ياله سكران
من غير خمر	ما للكئيب المشوق	يندب الاوطان
هل تستعاد	ايا منا بالخليج	وليا لينا
او تستفاد	من النسيم الاريح	مسك دارينا
واذ يكاد	حسن المكان البهيج	ان يحيينا
ونهر ظله	روح عليه انيق	مسورق فينان
والماء يجري	وعائم وغريق	من جنى الريحان

ثم ختم بذكر موشحة ابن الخطيب التي نسج فيها على
منوال ابن سهل وهي :

جاءك الغيث اذا الغيث همي يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى او خلسة المختلس

* *

واما النثر فقد تفردوا فيه بفن عجيب يصح ان نسميه
بالنثر الرمزي او القصصي، وهو الذي يكثر الكاتب فيه من
استعمال امثال العرب والاشارة الى اخبارهم وايامهم ويضمنه
كثيرا من الابيات المفردة والمقاطع البليغة المشهورة مما لا يتأتى
معه فهم المراد وفك المعلق من رسالة ذلك الكاتب الا لصاحب
الاطلاع الواسع والاستحضار النادر والتبحر في فنون العلم والادب.
وذلك كما في رسالتي ابن زيدون الجدية والعزلية
المشهورتين وكفى بهما شاهدا في هذا الباب. على ان قلائد
الفتح بن خاقان تكاد تكون برمتها من هذا النمط ولذلك
احتاجت الى الشرح فشرحها الاديب ابن زكور الفاسي
كما شرح الادباء رسالتي ابن زيدون.

ولقائل ان يقول ان هذا اسلوب عرفه كتاب العربية
من قبل ابن زيدون في المشرق والمغرب. وانا لا انكر ان
يكون بعض الكتاب قد استعمل في كتاباته كنايات وتلميحات
من هذا القبيل، انما الذي ازعم التفرد به لكتاب الاندلس هو هذا
الاكثار من تلك الكنايات والتلميحات والاقتباس والتضمين
في الرسالة الواحدة حتى تصير رمزا مغلقا كما قلنا على غير
العالم المطلع، ولا سيما اذا كان الكلام مسجعا كانشاء الفتح

وغيره من رجال القلائد. وهذا الأسلوب لم نر من بد فيه
 الإندلسيين حتى بعد بلوغه عندهم الى ذروة الكمال. وانما
 حسب الاتين بعدهم ان ينسجوا على منوالهم في النبذة
 المختصرة التي لا تبلغ ان تكون ربع رسالتي ابن زيدون
 فقط. ومثال من ذلك ما كتبه الوزير أبو جعفر بن عطية
 المراكشي الى مليكه عبد المومن بن علي يستعطفه وهو في السجن:
 «تالله لو احاطت بي كل خطيئة، وأصبحت نفسي عن
 الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وانفت لادم من
 السجود، وقلت ان الله لم يوح، في الفلك لنوح، وابرمت
 لاحتطاب نار الخليل حبلا، وبريت لقدار ثمود نبلا، وحططت عن
 يونس شجرة اليقطين، واوقدت مع هامان على الطين، وقبضت
 قبضة من اثر الرسول فنبذتها، واقتريت على العذراء البتول
 فقذفتها، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظهرت الاحزاب
 بالقصوى من العدو، وابغضت كل قرشي، واحببت لاجل
 وحشي كل حبشي، وقلت بان بيعة السقيفة، لا توجب امامة
 خليفة، وشجذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتلقت من حصار
 الدار وقتل اشيطها بشعبة، وقلت تقاتلوا رغبة في الابيض والاصفر
 وسفكوا الدماء على الثريد الاعقر، وغادرت الوجه من الهامة
 خضيبا، وناولت من قرع سن الحسين قضيبا، ثم كنت بحفرة
 المعصوم لائذا وبقيع المهدي رضي الله عنه عائذا، فقد آن لمقاتلي

ان تسمع، وان تغفر لي هذه الخطيآت اجمع، مع اني مقترف
وبالذنب معترف:

فعفواً أمير المؤمنين فمن لنا برد قلوب ههنا الخفقان

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته،

وما كتبه الصلاح الضفدى في ترجمة ابي حيان النحوي المشهور:

« لو رآه يونس بن حبيب لكان بغیضاً غير محبب، او

عيسى بن عمر لاصبح من تقصيره وهو محذب، أو الخليل

لکان بعينه قذاة، أو سيبويه لما تردى من مسألته الزنبورية

برداه، أو الكسائي لاعراه حلة جاهه عند الرشيد واناسه، أو

الفراء لفر منه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مداسه، أو أبو

عبدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية، أو أبو عمرو لشغله

بتحقيق اسمه دون التعلق بعربية أو السكرى لما راق كلامه

في المعاني ولا حلا، أو المازني لما زانه قوله ان مطابكم رجلا،

او قطرب لما دب في العربية ولا درج، او ثعلب لاستكن

بمكره في وكره ولما خرج ... الخ، وهو كما رأيت متكلف

بارد في بعض المعاني والاسجاع تكاد الغثاة والتلفيق يغلبان

فيه على الانطباع.

اما رسالتنا ابن زيدون فهما من الشهرة بمكان فلا حاجة

بنا الى ايراد شيء منهما وبوسع كل احد ان يرجع اليهما

متى شاء في ديوانه وكثير من مجاميع الادب.

* *

واما النظم ونعني به نظم العلوم فانهم قد اربوا على المشاركة وغيرهم اذ شاركوهم في مطلق النظم وتفردوا بنوع غريب يستعملون فيه رموزا واصطلاحات خاصة فيلمون في المنظومة الصغيرة والابيات القليلة بقواعد علم كامل من العلوم ويحصلون مسائله ويضبطون اصوله بحيث لو لم يتأتوا لها ذلك التآتي اللطيف ويسلكوا لها ذلك المسلك الغريب لما وسعهم الكتب المطولة والموضوعات المبسوطة لاستيفاء تلك الأغراض وتحصيل تلك المقاصد. وانظر الى قصيدة (حرز الاماني) في القراءات السبع المعروفة بالشاطبية نظم ابي القاسم الشاطبي رحمه الله فانها على اختصارها جمعت زبدة القراءات واحتوت من ذلك على علم غزير، ولذلك تجد الكثير من اهل العلم يحفظونها وقد خضع لها كبار الشعراء والبلغاء، وحذاق اهل الرواية والقراء.

وقال ابن خلكان في ترجمة الشاطبي: «انه ابدع في حرز الاماني وهي عمدة قراء هذا الزمان في تعلمهم فقل من يشغل بالقراءات الا ويقدم حفظها ومعرفتها. وهي مشتملة على رموز واشارات لطيفة وما اظنه سبق الى اسلوبها» واصطلاحه رحمه الله هو الذي اشار اليه بقوله :

جعلت (أباجاد) على كل قاري دليلا على المنظوم اول اول
ومن بعد ذكر الحرف اسمي رجاله متى تنقضي اتيك بالواو فيصلا
سوى احرف لا ريبة في اتصالها وبالقيد استغنى عن القيدان جلا

ومن هذا الباب قصيدة (غرامي صحيح) لابن فرح الاشبيلي
التي جمع فيها القاب الحديث بأسلوب عجيب ومنهج غريب اذ
سلك بها مسلك اهل الغزل في ظاهر اللفظ وحمل كل لقب
من القاب الحديث على معنى يليق بهذا الغرض حتى لو القيت
على عربي فصيح خالي الذهن من اصطلاحات اهل الحديث لما
فهم منها الا معاني غزلية رقيقة تنشرح لها النفوس وتعتبط بها
القلوب ومطلعها:

غرامي صحيح والرجا فيك معضل

وحزني ودمعي مطلق ومسلسل

وقد اعتنى جماعة من الافاضل بهذه القصيدة فشرحوها
وللعلامة الصبان قصيدة على نهجها وفي موضوعها اولها:
صلوا صحيح غرام صبره ضعفا وبدلوا قطع من في حكم شغفا
وهذا التاثر لخطاه والعمل على منحاها من العلامة الصبان
هو وحده دليل على مكانة الرجل وقيمة قصيدته.

ومن هذا الباب ايضا قصيدة ابي الجيش محمد ضياء الدين
الخرجي الاندلسي المعروفة بالخرجية في علمي العروض
والقافية التي سارت بذكرها الركبان والتي جمعت معيات
العلمين في تسعين بيتا ونيف بفضل ذلك الاسلوب البديع
الذي المعنا اليه وهو الرمز والاشارة. فبعد ان يقول في المطلع:
للشعر ميزان يسمى عروضة

بها النقص والرجحان يدرجهما الفتى

فيأتي به نظماً واضحاً لا غبار عليه، يقول رامزا لأجزاء
التفعيل العشرة مشيراً إليها بحروف (أبجد):

اصابت بسهميها جوارحنا فدا
ركوني بهمة كوقعيها سوى
فما زائرا فيهما حجبتهما

ولا يد طولاً هن يعتادها الوفا
الى غير ذلك. وقد بقيت ردحا من الزمن بكرا بخاتم
ربها الى ان اقتضاها الشريف ابو القاسم السبتي (لا الغرناطي)
وكتب عليها شرحه (رياضة الابي) فقد ذلك من عبقرياته
وتتابع الكتاب عليها بعد ذلك.

ويظهر ان علامتنا الصبان كان معجبا بهذه الآثار
الاندلسية جدا فكما طبع على غرار قصيدة ابن فرح كذلك
نسج على منوال قصيدة الخزرجي قصيدة لامية يقول فيها:
وبعد فعلم الشعر فن مؤكد

فبادر اليه واستمع فيه ما حلا

* * *

واما بعد، فقد قال ابن غالب في فرحة الانفس: «اهل
الاندلس (عرب) في الانساب والعزة والانفة وعلو الهمة وفصاحة
اللسن وطيب النفوس واباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة
بما في ايديهم والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنية (هنديون)
في افراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم

(بغداديون) في نظافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم ونباهتهم
وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة اذهانهم وحدة
افكارهم ونفوذ خواطرهم» زاد ابن حزم: «(صينيون) في اتقان
الصنائع العملية واحكام المهن الصورية» (تركيون) في معاناة
الحروب ومعالجة الالاتها والنظر في مهماتها». واني انشد هنا
ما انشده ابو الفرج بن الجوزي في المدهش:

خطوا واقلامهم خطية سلب

فهم على الخيل اميون كتاب

ان احسنوا كلما واخلو لقوا ذمما

واخشوشنوا همما فالقوم اعزاب



چند صہیون

جائني صديقي وهو ثائر النفس معتاض يسب ويلعن
هذا الزمن الذي ازري بالكرام وادال منهم للثام وسخرهم
للاراذل وجعلهم سخرية المحافل، فعجبت من حاله وكيف
انقلب من هدوئه المحبوب وسكونه المرغوب الى هذه
الثورة العنيفة التي قل ان شاهده في مثلها طيلة ايام صداقتنا
واسفت لضياح هذه الامسية التي كنت اقدر انها ستكون من
خير اوقات العمر نشاطا وانسا بالفسحة مع الصديق والتحدث
اليه في كل شأن من شؤون الكون والحياة وجعلت اكبح
من جماح نفسه واسكن من ثورته واتلمس اسباب هذا الانقلاب
الفجائي في سلوكه هذا الذي لو حدثني به محدث - ايا كان -
ما صدقته ولا وثقت به لكنني الان اراه عيانا واشهد دلائله في
وجه الصديق وملامحه واشاراته وعباراته فلا شك انه قد استفز
استفزازا لا يطاق واستثير بما لم يبق معه في قوس صبره منزع
وشعرت بالصديق كأنه يريد ان يخفي عني اسباب
ثورته وبواعث غضبه فلم اخرج به بالسؤال الصريح وان كان
في نفسي حرص شديد على معرفة ذلك، فلما رأني اهون
عليه الامر واحاول تسليته ما امكن قال لي انك لو تعلم
السبب في تأثري هذا وسخطي على الزمن الخؤون لنقطعت

نفسك حسرات ولما وجدت صبرا على مضي الايام ونكد
الحوادث وعبر الدهر وانقلاباته. قلت ما اشوقني الى معرفة
ذلك فاشاركك وجدك وحزنك واعزيك ان قدرت تغرية خاصة
حارة بدلا من هذه التسليات العامة الباردة التي اكررها عليك
منذ التقينا وما استطعت بها الى نفسك وصولا .

فقال كنت اتيا الى لقاءك طيب النفس منشرح الخاطر
مستبشرا بما سألقاه في محادثتك من غبطة وسرور وقد ربت
في نفسي برنامجا للفسحة لا شك انه كان سيروك جدا وما
عرفت كيف ملت عن الطريق المعتاد الى زقاق جانبي
ظننت اني سأختصر به الطريق ولم يخطر ببالي اني ساضل به
هذا الضلال البعيد وان ذلك شان البنيات ولازم الانحراف عن
الجادة، فلما توسطت الزقاق وجدتني بالقرب من دار احد
اليهود وعلى بابها يهودية تسكت ولدها وهو يبكي وقد سمعتها
تقول له حين لمحتني وكان كلامها بالفرنسية كسائر اليهود
المتمدنين الذين لم يبقوا يرضون التكلم بالعربية: «انظر هذا
المسلم. انه سياخذك ان لم تسكت» .

وسكت صاحبي ونظر الي وهو يلهث كأنه كان حاملا
لشيء ثقل قد آده واتعبه. وكنت انا ابتسم لما سمعت من
حكايته واعجب من شدة تأثره. فلما رأني كذلك ساء ظنه
في وعجب من تبدل شعوري وكيف لم استحسن ما في الواقعة
من زراية وهوان، فقلت وهل اجبت صاحبك بشيء او اشعرتها

على الأقل أنك فهمت ما قلت فقال لا لم اقل لها شيئا ولقد
هممت ان اصك وجهها ولكني تذكرت انها امرأة جاهلة على
كل حال . فقلت لصاحبي جاهلة حيث انها جعلتك في اناقتك
وجمال هندامك مثل الغول او البونع الذي يخوف به الصبيان .
قد والله جهلت جهلا مريبا . قال لا تسخر مني وكفى ما رايته
من موت شعورك وكثافة حسك هذه العشية .

فربت على كتف صاحبي وقلت له هون عليك يا عزيزي
ولا تبتئس ولا تحزن بما يوجب السرور والفرح . انك قد حملت
الي بشرى عظيمة في هذه العشية وقد كان الواجب ان تقص
علي الخبر من اول وهلة لنبدأ سرورنا وابتهاجنا بهذه الفسحة
في اول الطريق . اذا كان اليهود العصريون يخوفون اولادهم
بنا كما كان يفعل اوائلهم فنحن لنا النصر والفلج بذلك اذ
يكبر اولادهم على رهبتنا والتوجس منا فكيف يجراؤون بعد
على رفع راسهم امامنا او القيام بحركة عدا نحونا . اذا كان
هؤلاء هم جنود صهيون الذين يعتمد عليهم في بناء ملكه وتمهيد
عرشه فبشره من الآن بالخيبة والخسائر ! ولما قلت لك هل
اجبت صاحبك بشي خشيت ان تكون نبهتها بعد الغفلة
فلما قلت لي انك لم تجبها بشي سررت سرورا عظيما بتركك
لها في عمايتها ومن يدري انها كانت تحكي كلامك لزوجها
فيجعلها تعدل عن خطتها في تربية الاولاد وما نشأ نحن ان
يتنبه هذا العنصر الدخيل لمثل هذه الامور .

وقد سري عن صديقي بهذا الكلام وسر بقدر ما كان
ساخطا اول الامر ومررت امسينا بعد ذلك على ما كنا نتمناه
من الانشراح والمتعة .



درهم بدینارین

كانت بنت احدی الاسر الاصلیة ولكن الفقر غص من مكانها وخط من قدرها في هذا المجتمع الذي كل الاعتبار فيه مبني على الدرهم والدينار . وكانت على جانب من الجمال وصناع اليد ومن ملكات العفة المتوجة بتاجها الثمين .

تزوجها رجل من اولائك العامة الذين ملأت ادمغتهم الاساطير العنصرية والاسماعلية وثقفوا مثلها وسخافاتهما فخالوا انفسهم قد عرفوا كل شيء وصاروا بحيث لا يعجزهم شيء . وكان سمسارا لكنه لم يكن يسمسر عروض التجار بل كان ياتيها بالثوب فتخيطة فيسمسره ويبيع ليربح ربحا مضاعفا . ويأتيها بقطعة الاثاث فيامرها بصقلها واصلاحها ثم يسمسرها لحسابه فيبيعها كذلك حتى صار من ذوي اليسار ان لم يكن في الناس مطلقا ففي السماسرة امثاله بغير شك .

وامتلك بعض العقار وما فتي يجد ويجتهد وزوجه من ورائه تجري معه الى الغاية التي ينشدها . تشقى ليسعد وتتعب ليستريح ولاكنه لم يكن يرى لها شيئا من الفضل او يعطيها قليلا من الحق فيدلس عليها كما يدلس على زبائنه في السوق يزعم لها انها عاقر وهو العقيم ويتظاهر لها بالافلاس ليتماذى في استغلالها ويتفادى من اجابة مطالبها وهو الغني الذي جمع ثروته من شغلها وادابها حتى اذا سول له الشيطان ان يضحى

بها في سبيل شهوته ويقدمها قربانا بين يدي آتانيته جاها ذات يوم بسودا قال انها ممن يتعامل معه من خارج المدينة وانها ستبيت ليلها عنده وتذهب في الغد .

فقامت الزوج المخدوعة بخدمة السودا واحسنت ضيافتها ولما كان الغد لم تذهب ولم يقل لها الزوج شيئا، انما السودا اخبرتها انه تزوجها وانها صارت ضرة لها وان البيت عاد لهما معا وانها اصبحت شريكها في كل شي فعرفت جلية الامر ورأت ان المقام بذلك البيت ضرب من الانتحار .

وفي غفلة من الرقبا تحولت الى منزل والدها وكان بيتا من الخشب في قطعة ارض محاطة بحظار من القصب والاعواد على مسافة قريبة من بيت ذلك الزوج الخوون فلزمت المنزل رغم محاولته العديدة لارجاعها الى بيته ولكنها لم ترجع وضحت بجميع شوارها في سبيل حريتها وخالعت وانبت حبلها منه .

وقضت عدتها بين خدمة ابوها الذي كان فريدا في المنزل وغراسة بعض النباتات والرياحين في قطعة الارض التي كان ابوها يقوم بفلقها ويقنات مما تخرجه من بقول وخضراوات .

وكان الزوج المحروم الذي شعر في الحين بفراغ بيته وخراب عشه ياتي اثناء مدة العدة يطوف بالمنزل ويطل عليها من فرجات الحظار ويناديا فحينما تشعر به تختفي في البيت الخشبي ولا تعود الى الظهور حتى يمل ويذهب .

وهكذا الى ان انقضت عدتها وتقدم الى ابوها شاب من

حملة القرآن وضيء الوجه بقي الشباب من أمثل الطلبة الذين
يحترمهم كل من رآهم فخطبها وتزوج وخرج بها الى البادية
حيث كان يشتغل بتعليم صبيان احدى القرى ويؤم الناس
في مسجدها. وهناك حيث الهوا الطلق والعيشة الراضية تحررت
من قيود العمل المضني التي كانت تغلها وتكبلها واستعادت
صحتها وجمالها كاحسن ما كانت وأبهاه.

وبعد مدة رزقت من بعلها الجديد بابن افتر له ثغر سعادتها
وانبعثت به حيوية امومتها التي كان قضي عليها كذب الزوج
القديم.

حدثني بقصتها يوم وفاة هذا الزوج عن غير وارث صديقي
الذي عرفني بالطالب الذي تزوجها فعرفته واخبرني انه رآه
قبل ذلك بقليل ومعه ابنه منها وهو فى سن السابعة تقريبا
وبمنتهى الملاحظة. فقلت سبحن الذي ابدل درهمها بدينارين!



السيد المختار

ليس السيد المختار من رجال السيف ولا من رجال القلم ولكنه من رجال الفكر الذين يقل لهم النظر، هكذا يعد نفسه ويعرف من لم يكن يعرف عنه ذلك ولكن بطرق واساليب لا تمتنع على حذقه ولا تعوز حسن تصرفه .

هو يحدثك اولاً عن تأخر هذه الامة وانحرافها عن سبيل الرشد ويلفت نظرك الى ما بلغ اليه غيرها من الرقي في العلوم والمعارف والحضارة والفنون. ثم يشير الى اسباب كل من هذا التأخر الذي أصابنا والرقي الذي عليه غيرنا من الامم ويذكر من جملة ذلك كسلنا وجدهم وبخلنا وبذلهم وقناعتنا وطموحهم وخوفنا وشجاعتهم ثم يقول اننا يعوزنا رجال من ذوي الفكر الصائب والنظر الثاقب لينظروا في دائنا ودوائنا ويضعوا الخطط اللازمة لانتشالنا من هذه الهوة السحيقة التي وقعنا فيها ولكن مع ذلك يلزم ان يقوم الشعب بتنفيذ هذه الخطط والعمل بمقتضاها منعا لاوامر من وضعوها غير مبدل منها شيئاً معترفا بما لهم من الفضل عليه وناظرا اليهم نظر اجلال وتقديس، لانهم الذين اعادوا اليه رmqه بعد ان كان في السياق ونفخوا فيه الحياة وقد اشرف على الموت .

غير انه - ويا للأسف - لا يرى في الشعب استعدادا لقبول افكار المصلحين وخطط المجددين لانه هو - وهذا شيء واقع -

كثيرا ما فكر وقدر ثم بحث ونظر وطلع على الناس بأفكار جديدة وخطط مفيدة راميا الى تحسين مظهر هذه الامة طورا والى تنوير عقلها طورا آخر وعرض ذلك على كثير ممن يظن فيهم الغيرة والتحرق على مستقبل الوطن واهله، ولكنهم كانوا لا يرفعون بذلك راسا ولا يحIRON جوابا. فيمضي طاويا على حزن ويكاد ييأس من صلاح هذه الامة التي اعنى علاجها نطس الاطباء وحيل المفكرين.

وبمثل هذا الاسلوب يفرغ السيد المختار جعبته ويفضي اليك بذات نفسه فتعرف انه من اعظم المفكرين واكبر المصلحين الا انه كالنبي الذي ضيعه قومه تذهب دعوته ادراج الرياح ولا يستجيب له احد من الناس.

وتفكر انت في الرجل الذي له كل هذا الاهتمام بمصالح امته والحرص على مستقبلها فتقول في نفسك ماذا يصير لو كان السيد المختار مشرفا على مقدرات البلاد ومديرا لدفة سياستها ويحسن في نظرك ان تظهره على هذا الخاطر فيقبل منك بكل تلهف ويبدأ في عرض برنامجه الطويل الشامل لاصلاح حالة الامة مادة ومعنى دينا ودنيا فيبدأ بمسألة الكتاتيب والافران والحمامات وسقائي الماء وينتهي بتنظيم وزارات الجو والبحر والحربية وغيرها فلا يفرغ من حديثه حتى تشعر بان هذا المغرب البائس الحظ الآن قد صار اعظم شانا واكبر خطرا في النظام الداخلي والسياسة الخارجية من بريطانيا العظمى!

ولكنك ترى ان ذلك خيال بعيد التحقيق وامل لا طمع
في الحصول عليه الآن على الاقل ، ويشعر المفكر العظيم بما
يجول في فكره وما خامرك من الشك في امره فيسبقك الى
التأسف على عدم امكان تطبيق هذا البرنامج ويقول (ان الله
تعالى يعطي الفول لمن لا اسنان له) غير انه ما لا يمكن كله
لا يترك كله، فعلينا ان نأخذ ببعض هذه التدبيرات ونبدأ منها
بما هان ونترك ما صعب.

ففي باب التعليم وتنوير عقول الناشئة يجب ان نستحوذ
على هذه الكتابات القرائية وندخل عليها بعض اصلاحات تصير
بها نافعة. في الجملة مفيدة بعض الفائدة ونبدأ للتجربة باحدها
ونطبق فيه الخطة المتوخاة فحين ما تمر عليه سنتان او ثلاث
وتظهر النتيجة المحمودة للعيان يكون ذلك مشجعا على المضي
في طريق الاصلاح وتطبيق الخطة على الجميع.

وياخذ بعض الناس بقول المفكر العظيم في هذه المرة
لحسن الحظ ويعولون على العمل فيقتيدهم بكتاب مخصوص
يكون به الابتداء ويتكلف هو بامر حيازته لانه حبس احدي
قريباته على التعليم، انما هو الآن في يد احد المكتبيين الذين
شاخوا وعجزوا عن العمل وقد اغلقه وذهب لحال سبيله، ويبقى
مفكرنا يجول بنظره في طريقة العمل فيرى انه يجب قبل مخاطبة
السيدة صاحبة الحبس ان يأخذ بخاطر المكتب نظرا لشيخوخته
ولانه رجل متبرك به! ولكنه قبل انتهائه الى نتيجة عملية ياتي

احد الطلبة البدو فيلتقي بالشيخ المكنب ويطلب منه ان يعطيه مفتاح الكتاب «ليسترزق» الله فيه بتعليم الصبيان فيناوله الشيخ المفتاح بطيب خاطر ويحتل البدوي الكتاب ببضعة من الصبيان ويزاد في رقعة الشطرنج بغل!

وبضياع الكتاب قضى على الفكرة من اساسها ولم يعد يفكر فيها احد، وحملت المسؤولية على الظروف التي صار من طبيعتها ان لا تساعد على عمل خير كما قال المفكر العظيم، ولكن الامل لم ينقطع في الخطط الاصلاحية الاخرى التي يهتم بها حضرته، فقد عرض على الناس هذه المرة مشروعا يتعلق بتحسين مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية يرى انه لا اعتبار لنا عند احد ما دمنا لم نقم به.

وقد انصاع له ثلثة من الناس ايضا ولكنهم عولوا على السعى بانفسهم في تنفيذ هذا المشروع. وكان قدر له نحو الخمسين ريالا فجمعوها من تبرعات بعض المحسنين بطريقة سرية - كما كان يقترح المفكر العظيم دائما - وبعد مداولة واخذ ورد وفي ظرف عدة اسابيع فقط اتفقت كلمة المفكر مع كلمة العاملين على نوع ولون وعدد اذرع الثوب الذي فصل منه غطاء يوضع على النعش حين حمل الجنازة الى المقبرة! - وكان هذا هو المشروع التحسيني الذي يهتم به المفكر العظيم ردحا مر الزمن.

فلتحى الامة! فلتحى الامة!

ذكرى الهجرة

كتبت هذه الكلمة للجنة الاحتفال بذكرى
الهجرة في الدار البيضاء عام 1360

ان ذكرى الهجرة يجب ان تكون بالنظر الى الهجرة
من وجه عملي يحفز الامة الى العمل والنسج على منوال اولئك
الاسلاف الاطهار الذين باعوا انفسهم لله بيع السماح وزهدوا في
متاع الحياة من مال وبنين ومساكن واوطان بغية الوصول
الى مثل اعلى من سمو الروح وقدسيتها النفس في ظلال الوحي
الوريفة وكنف الاسلام الرحيب.

وان من محاسن الاسلام التي لم ار من نبه عليها ان
كل ما اتى به من الشعائر وفرضه من الواجبات، سواء الموقت
منها والممتد، هو حظ مشاع بين اتباعه ودعوة عامة لمعتنقيه
اينما كانوا وفي اي وقت وجدوا. فلا يحرم من ذلك الفضل
احد ولا يختص بهذا الخير متقدم دون متأخر:

فاما فيما امتد حكمه من الشعائر والواجبات فالامر واضح
واما في الوقتي منها المتقطع بانقطاع سببه فانه ان لم تبق صورته
مع بذل الثواب العظيم عليه كما في بعض اعمال الحج، فلا بد
ان يعوض منه عمل آخر يكون دائميا ويكون له قيمة المعوض
سواء بسواء.

فهذه الهجرة التي أمر الله بها الدين ورفع مكانه عاليا بين
الناس والتي تعتبر حادثا فاصلا في حياة الاسلام والنبي عليه
السلام اذ بها امن هو واصحابه رضوان الله عليهم على انفسهم
وامكنهم التظاهر بعبادة ربهم والدعوة الى الله كما امر ودفاع
من طغا عليهم وتجبر حتى قال الله عز وجل فيهم «الذين آمنوا
وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة
عند الله، واولئك هم الفائزون، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان
وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها ابدا، ان الله عنده اجر
عظيم» وقال تعالى «للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم
واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله
اولئك هم الصادقون» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لولا
الهجرة لكنت امراً من الانصار» وقال لمن سأله من اصحابه ان
يدله على عمل يستقيم عليه «عليك بالهجرة فانه لا مثل لها» .
هذه الهجرة قد انقطع سببها وانقضى موجبها ولكن الشارع
الحكيم لم يشأ ان يحرم الامة من مثل هذا العمل في ثوابه
العظيم واجره الجسيم فعوضها منه امرا باقيا لا ينتهي وجعل له
مثل فضله ورغب فيه وحث عليه فقال مخبرا ومنشئا «لا هجرة
بعد الفتح ولكن جهاد ونية» !

مرحى ! مرحى ! ايها الدين الكريم، ايتها الرحمة المهداة،
انما انت نفحة قدسية وعطفة علوية ، ترفرف على هذا الانسان
الضعيف ونجذبه نحو سماوات الكمال ليتطهر ويتقدس ، فلا

يبتس أحد ولا ييأس ، وبالجهاد ، اعني بذل الجهد في اعلاء كلمة الله ، وبالنية اعني الاخلاص في العمل يدرك مقام من مدحهم الله عز وجل بقوله « اولئك هم الصادقون ، اولئك هم الفائزون » وفي الحديث : ان اعربيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الهجرة فقال ويحك ! إن شأن الهجرة شديد فهل لك من ابل ؟ قال نعم ! قال فهل تؤدي صدقتها ؟ قال نعم ! قال فاعمل من وراء البحار فإن الله عز وجل لن يترك من عملك شيئاً ، فبشرى معشر العاملين بشرى ! فإن الله لن يضيع عملكم من وراء البحار وان القدوة الاعظم صلى الله عليه وسلم لينظر اليكم - وأنتم في بلادكم - نظره لمن هاجر الى الله ورسوله لان معنى الهجرة قد تحقق معكم . وما معنى الهجرة الا العمل لاعزاز دين الله فإن كان في عدم الهجرة اعزاز لدين الله فان ترك الهجرة هو الهجرة !

وفي هذا المعنى كما لا يخفى رد على كثير من المتشائمين العجزة الذين يستعظمون هذه الاخطار ويجزعون مما يرون من الخطوب فيستخذون ويستسلمون ولا يزرون وسيلة للنجاة الا الهجرة ومفارقة الاوطان جاهلين او متجاهلين انه لو اخذ الناس جميعاً برأيهم لكان معنى ذلك تسليم بلاد الاسلام الى العدو وتحقيق رغبة لم يستطيع ان يحققها بالسيف والنار . وأي فرق بين ذلك وبين الفرار يوم الزحف وتولية العدو الادبار ؟

حقا إنها دسيسة استعمارية خبيثة ولاكن الحمد لله على ان
العوامل الطبيعية التي تقاومها اقوى من العوامل السياسية التي
تشجعها . وأذكر اني كنت اتحدث منذ بضعة اشهر مع بعض
الفرنسيين في الاحوال الحاضرة فقال لي ان مضيتنا هي المصيبة
واما انتم فامامكم الشرق والبلاد المقدسة يمكنكم ان تهاجروا
اليها . واجبته كلا فإننا لن نهاجر ولن نترك هذه البلاد فانها
وديدة الاسلاف عندنا واذا ضيعناها نكون خونة مثل رئيسكم
التي تحدثت لي عنه (بيتان) فابتسم وقال انت وحدك تقول
هذا

وبعد فلما استقر الاسلام واخذ اتجاهه الاخير في تتميم مكارم
الاخلاق قال النبي صلى الله عليه وسلم «المسلم من سلم المسلمون
من لسانه ويده والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه» فعم لفظ
الهجرة بعد ما خص وراجع شموله ليدخل كل من تعلق قلبه
بهذه الفضيلة ويحقق ان الاسلام دائما هو ذلك الدين العملي
المساير للمصلحة العامة جنبا لجنب وان جميع فروضه هي مطالب
منطبقة على العقل والمنفعة الحقيقية للانسان فاذا قام بها
المكلفون سعدوا سعادة دائمة وورقي المجتمع رقيا عظيما واي فوز
وفلاح للبشر اكثر من ان يهجروا ما نهى الله عنه؟

في عيد الكتاب

«لقى هذا الخطاب بمناسبة افتتاح المكتبة
البلدية في يوم عيد الكتاب الواقع في 23
ابريل 1941 بمسرح سربانطيس بطنجة،

ايها السادة

طلب الي ان اتكلم في هذا الحفل المشهود على انه موسم
ادبي رفيع لا ينبغي ان يتكلم فيه الا باحاديث العلوم والآداب
واسرار المعارف والفنون. فانا فضلا عن الاعتبار الخاص الذي
افردت به من بين سائر من لهم استعداد لذلك، احببت ان
يكون اليوم حقا يوما ادبيا زاهرا وان لا يسمع فيه الا صوت
العلم عاليا رفيعا. فقطعا للطريق على اولئك الترفارين المهذارين
وسدا للمجال في وجه كل مداح افاك قد مل الناس حكومة
وشعبا سماع اباطيله وترهاته، اجبت الطلب بكل سرور.

وما ذا عساني اقول في يوم المكتبة والكتب؟ وما ذا
اتحدث به عن الكتاب والمكتبة؟ وهما دعامة الحياة الفكرية
في كل الامم ومظهر النشاط الادبي ونتيجة خصب العقول
وتفتح القرائح. فالشعب الذي لا يقرأ، لا يسبر غور الحياة ولا
يقوم بالتغذية اللازمة للفكر المنهوم. والشعب الذي لا يكتب
انما يبرهن على جموده وتبلد احساسه وانه شعب عقيم ليس
فيه استعداد للانتاج.

وأول مقياس لتطور فكر الشعب وثقافته هو هضمه لما يقرأ وتمثله له في أساليب تعليمه وتربيته. وأعظم مظاهر عبقرية الشعب ونبوغته هي كتبه ومنتجات عقول ابنائه. فالكتاب اذن هو باعث الحركة الادبية ودليل الحيوية الفكرية في كل عصر وفي كل جيل. والمكتبة هي معبد الفكر ومعتكف المفكرين وهي المعمل الذي تضع فيه العقول وتتصاغ الاذواق.

وها نحن نرى الامم الحية اول ما تجتهد فيه ان تمحو اثر الامية من بين افرادها حتى تهينهم بذلك للقراءة ثم تسهل لهم سبل هذه القراءة حتى تجعلها منهم على طرف الثمام. فتضع بين ايديهم من الجرائد والمجلات والكتب الخفيفة من كل نوع، وفي كل فن، ما يستطيعون به ان يتتبعوا تطورات العالم في السياسة والاقتصاد والعلم والادب. تؤسس لذلك المكاتب القارة في المدن والاحياء والمتنقلة في الشوارع والقرى تسهила على من يريد المطالعة بل ترغيبا له فيها. وتقيم معارض دورية للكتب بمناسبات مختلفة تقديرا لها واعلانا عنها. وتمنح للكتب الناجحة جوائز قيمة مكافأة لاصحابها وتشجيعا لهم في الوقت نفسه على مواصلة الانتاج.

وهكذا تخلق من طبقات الشعب الفقيرة والجاهلة مجموعات من المثقفين والمتعلمين يعرفون واجباتهم الوطنية ويحترمون انفسهم ويؤذون ما عليهم من الحقوق بدافع من

انفسهم ولا يألون جهدا في تحقيق المثل الاعلى لاممهم التي
تريد ان تحيي دائما حياة العز والشرف.

وبذلك كثرت الكتب كثرة لا مزيد عليها وكثر
الاقبال على القراءة بحيث يستنفد كل الكتب، فالكتاب تطبع
منه ملايين النسخ، والكتاب تطبع منه مآت ألوف النسخ، والكتاب
تطبع منه عشرات ألوف النسخ، وكلها تقرأ وتنفد، ويصبح
بعد قليل من اندر النوادر.

هذا عند الامم الحية في العصر الحاضر وبعد اختراع
المطبعة التي هي من اعظم المنن على الانسانية.

وفي العصور الغابرة عرف القدماء قيمة الكتاب واجلوه
وبذلوا في تحصيله كل نفيس وغال. فالكلدانيون والعبرانيون
كانوا من اول الامم اشتغالا بالعلوم والمعارف وتقديرا للمكتب
والمكاتب. واهل فارس والهند والصين هم ايضا من سباق
هذه الحلبة، وقد اعتنوا بطلب الحكمة وتحصيل الاذاب فبرعوا
في هذا الصدد براعة تامة واودعوا خلاصة معارفهم في كتب
نفيسة تناقلتها الامم بعدهم ومنها كانت تتكون مكاتب العهد
القديم. والجميع يعرف قصة كتاب كليلة ودمنة الهندي وما
بذله الملك الفارسي في سبيل الحصول عليه من الجهود الكبيرة
مما يدل على اهتمام القوم بالكتاب وتقديرهم له التقدير العظيم.
واليونان هم معلموا القرون ومهذبوا الاجيال بفلسفتهم
وطبهم وهندستهم. وادبهم وهم الذين تركوا الذخائر الغالية من

الكتب العلمية والفنية التي لا كفا لها ولا نظير.
والمصريون هم اول من استعمل ورق البردي للكتابة
وتخليد الآثار الفكرية القيمة وناهيك بما جمعه من كتب
العلم والمعرفة وما كانت تحويه مكتبة الاسكندرية المعروفة
في عهد البطالسة من التأليف والمجلدات التي بلغت في بعض
التقديرات الى 700000 كتاب. وكان بهذه المكتبة المدرسة
العظيمة المشهورة التي تعرف عند العرب برواق الحكمة وفيها
ولدت الفلسفة الافلاطونية الحديثة.

اما العرب فانهم بعد ان وجد لهم كيان سياسي ودولة
مدنية بسبب ما هداهم الله اليه من الاسلام قاموا يجدون في
طلب العلم والمعرفة ويجتهدون في البحث عن كتب الحكمة
والادب. وما مضى جيل على تاسيس الخلافة الاسلامية حتى
كان الخلفاء انفسهم يامرون بترجمة الفلسفة اليونانية ونقل
كتب الاقدمين من الممالك التي فتحوها سواء في الالاهيات
والطبيعات والرياضيات والادبيات الى اللغة العربية وتاسيس
المكاتب العمومية واغداق الصلات والجوائز العظيمة على العلماء
والمؤلفين وبناء المدارس لطلبة العلم في سائر انحاء المملكة
الاسلامية المترامية الاطراف.

وقد كثرت الكتب عند العرب كثرة مطلقة لا يمكن
معها لامة ان تقابلهم بمثلها، اذ كان فيهم مؤلفون من كل
الاجناس والملل كالفرس والروم والنقب والسريان والهنود

واليهود والترك والديلم والقبط والفرنج والبربر فضلا عن العرب انفسهم. وكان ما يكتبه بعض الافراد في النقليات والعقليات يزيد بكثير على ما تكتبه امة باجمعها في جيل كامل من تاريخها فمنهم من كتب الف كتاب ومنهم من كتب خمسمائة وكثيرون جدا كتبوا ثلاثمائة ومائتين وفي هذه الكتب ما يكون مؤلفا من مائة جزء وخمسين جزءا وعشرين وعشرة، وبعضها بيدنا لا يزال الآن يحتوي على هذا العدد مما لا مجال للشك فيه.

وقد اصابَت المكتبة العربية نكبات وخطوب تاريخية مشهورة من احراق واغراق ونهب وسلب بيد الصليبيين في حروبهم المشهورة وبيد التتار في هجماتهم المخربة على ديار الاسلام حتى قيل انهم كانوا يردمون الانهار بالكتب ويجتازون عليها كالجسور.. ومع ذلك فان البقية الباقية منها فيها بلاغ ومقنع. وحسبكم ان ما عده حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون من اسماء الكتب المعروفة في عصره اعني في القرن الحادي عشر للهجرة يقرب من 15 الف كتاب من الامهات والاصول عدا الحواشي والشروح التي لا تعد ولا تحصى.

وكان اول من انشأ مكتبة عامة في الاسلام هو الخليفة هارون الرشيد او ابنه المامون وكانت هذه المكتبة في بغداد وتسمى بيت الحكمة ولا تسب عما كان بها من الكتب والمجلدات في كل المعارف البشرية. ثم اسست بعد ذلك

مكاتب عديدة في بغداد نفسها والبصرة ودمشق والقاهرة وفي
بخارى وسمرقند وخراسان والري وفي قرطبة واشبيلية
وغرناطة وفي مراکش والقيروان وفاس وغيرها.

وكان بخزانة العزيز بالله من خلفاء الفاطميين بمصر
مليون وستمائة ألف كتاب منها نحو 30 نسخة من كتاب
العين للخليل ومنها 20 نسخة من تاريخ الطبري ومنها 100
نسخة من كتاب الجماهرة لابن دريد مما يدل على أنهم كانوا
يلاحظون فائدة الجمهور في تكرير النسخ.

ولما دخل الصليبيون مدينة طرابلس الشام كان فيها
خزانة كتب تحتوي على ثلاثة ملايين مجلد.

وأما في الأندلس فقد اشتهر أنه كان بمكتبة الحكم بن
الناصر بقرطبة 400000 كتاب وأن فهارس الدواوين الشعرية
وحدها بهذه المكتبة كانت 44 فهرسا في كل فهرس عشرون
ورقة، وكان يرسل في طلب الكتب وشرائها إلى كل الأنحاء
ويكافي العلماء والمؤلفين مكافآت جزيلة فبعث إلى أبي الفرج
الأصبهاني ألف دينار ذهب ليرسل إليه كتاب الأغاني قبل
إخراجه لبني العباس. وكان أبو الفرج أمويا مثله. وكذلك
بعث إلى أبي بكر الأبهري ألف دينار على شرحه لمختصر
ابن عبد الحكيم.

واقتردى بالحكم الرؤساء والأعيان وأهل الوجاهة في
قرطبة فتنافسوا في إنشاء المكاتب واقتناء الكتب حتى كانت

المكاتب العمومية فيها تعد بالعشرات واما المكاتب الخاصة
فحدث عنها ولا حرج وربما كان الرجل من العامة وله مكتبة
حافلة في بيته كما يستفاد من حكاية الحضرمي هذه، قال:
«اقتمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيه
وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع لي وهو بخط
فصيح وتفسير مليح ففرحت به اشد الفرح فجعلت ازيد في
ثمنه فيرجع الي المنادي بالزيادة علي الى ان بلغ فوق حده
فقلت له يا هذا ارني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الي
ما لا يساوي قال فاراني شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه
وقلت له اعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض في هذا الكتاب
تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده فقال لي لست
بفقيه ولا ادري ما فيه ولكنني اقتمت خزانة كتب واحتفلت
فيها لاتجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا
الكتاب فلما رايته بحسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال
بما ازيد فيه والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير».
قال الحضرمي «فأخرجني وحملني على ان قلت له نعم
لا يكون الرزق كثيرا الا عند مثلك، يعطي الجوز من لاله
اسنان. وانا الذي اعلم ما في هذا الكتاب واطلب الانتفاع به
يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه» الخ.
ونشير الى بعض المكاتب المغربية تتميما للفائدة ففي
مراكش اسس يوسف بن عبد المومن مامون الموحدين مكتبة

صاحي بها مكتبة الحكم المشار اليها وجمع لها من الكتب ما كان متفرقا في الخزائن الخاصة والعامة ببلاد المغرب والاندلس حتى اصبحت من اعظم مكاتب الاسلام - وقد اورد في المعجب هذه الحكاية التي تدل على ما كان يبذله في هذا السبيل من الترضيات الكبيرة قال :

«اخبرني ابو محمد عبد الملك الشذونفي احد المتحقيقين بعلمي الطب واحكام النجوم قال كنت في شببتي استعير كتب هذه الصناعة يعني صناعة هذه الاحكام من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى ابا الحجاج يعرف بالمزاني بتخفيف الراء كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في ايام الفتنة بالاندلس فكان يعيرني اياها في غرائر احمل غرارة واجي بغرارة من كثرتها عنده فاجبرني في بعض الايام انه عدم تلك الكتب بجملتها فسألته عن السبب الموجب لذلك فاسر الي ان خبرها انهى الى امير المؤمنين فارسل الى داري وانا في الديوان لا علم عندي بذلك وكان الذي ارسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وامره ان لا يروع احدا من اهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب، وتوعده والذين معه اشد الوعيد ان نقص اهل البيت ابرة فما فوقها فاجبرت بذلك وانا في الديوان فظننته يريد استصفا اموالي فركبت وما معي عقلي حتى اتيت منزلي فاذا الخصي كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج اليه فلما راني وتبين ذعري

قال لا بأس عليك واخبرني ان امير المؤمنين يسلم علي وانه
ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ثم قال
لي اهل بيتك هل راعهم احد او نقصهم شيء من متاعهم فسألتهم
فقالوا لم يرعنا احد ولم ينقصنا شيء. جاء ابو المسك حتى استأذن
علينا ثلاث مرات فاخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه الى
خزانة الكتب فامر باخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال
ما كان في نفسي من الروع. وولوه بعد اخذهم هذه الكتب
منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه.

وهذا نفسه هو ما تفعله الحكومات الراقية اليوم في نزع
مثل هذه الذخائر من ايدي العامة محافظة على تراث الامة
وهونا له من الضياع.

وكان لخزانة الكتب عند الموحدين ولاية خاصة لا يولاها
الا خاصة اهل العلم لان امرها لديهم عظيم. وممن ولي النظر
فيها ايام يوسف بن عبد المومن القاضي ابو محمد بن الصقر
وكان من احسن العلماء نظرا في كثير من الفنون فقام عليها
اتم مقام واستنسخ لها كثيرا من المجلدات وكان كلما بالغ
في النصيحة والخدمة كلما بالغوا له في العطايا والصلات.

ولما كان الناس على دين ملوكهم فان رجال الدولة
والعبار وذوي الحيشات كانوا يتنافسون في هذا السبيل وقل
ان تجد منهم من ليس له في بيته مكتبة عامرة تحتوي على
عدد كبير من المجلدات. وقد ذكر عن القاضي عيسى بن

ابي حجاج بن الملجوم - وهو الملجوم من نبوتات فاس القديمة -
انه ابتاع اصل ابن عبد البر من سنن ابي داود بخمسة آلاف
دينار فهل سمع بمثل هذا الثمن لكتاب متداول يقع في مجلد؟
الحقيقة ان هذا الفعل اربى على فعل الحكم في شراء الاغاني
من مؤلفها ابي الفرج. وكان للامام عبد الرحمن بن الملجوم
خزانة كتب بيعت خرمها اي اوراقها المتخرقة بعد وفاته بستة
الاف دينار فاذا كان هذا ثمن الحرم فما ثمن الكتب من اصلها؟
وحكى الانصاري في تاريخ سبتة ان عدد الخزائن بها
كان اثنين وستين. كان منها في القديم بدور الاكابر وذوي
الاقدار خمس واربعون خزانة. وفي زمانه كان منها سبع عشرة
خزانة تسع بدار الفقهاء والصدور وثمان موقفة على طلاب
العلم. اقدمها الخزانة الشهيرة ذات الاصول العتيقة والمؤلفات
الغريبة خزانة ابي الحسن الشاري التي بالمدرسة المنسوبة اليه
التي ابتناها من ماله وهي اول خزانة وقفت بالمغرب على
اهل العلم. واعظمها احدى خزائني الجامع العتيق الكائنة
بشرقي صحنه وبازاء باب الشواشين احد ابوابه وهي في الكثرة
بحيث لم يشذ منها فن من الفنون ولا نوع من المعارف اصلا
مع تعدد مصنفات ذلك الفن وكثرة دواوينه. الخ

ولما جاء بنو مريث اسسوا خزانة القرويين العامة
وشحنوها بنقائس الكتب والذخائر وما زال الملوك والمحسنون
من الشعب يقفون عليها المؤلفات والتصانيف البديعة الى ان

صارت من اعظم المكاتب مشهورة في العالم الاسلامي كله. وبها كثير من الكتب الموقوفة بخطوط مؤلفيها انفسهم كتاريخ ابن خلدون وغيره ولولا ان الايدي تلاعبت بكثير من ذخائرها لكانت اليوم في طليعة مكاتب العالم غنى بالنفائس والنوادير. وهناك مكاتب اخري لا تخلو من نفائس وذخائر كخزانة جامع ابن يوسف بمراكش وهي جامعة وخزانة الجامع الاعظم بمكناس ويغلب عليها كتب الفقه كالمدونة وشراحها وخزانة الجامع الاعظم بتازة وبها نحو 400 مجلد في التفسير والحديث وما الى ذلك ومن مكاتب الافراد خزانة القاضي مولاي عبد الهادي بفاس تحتوي على ذخائر منها تاريخ للمغرب قبل الاسلام في مجلد على ما قيل والخزانة الفاسية بها نحو 4000 مجلد وخاصة كتب السادة الفاسيين. والخزانة السودية بها نحو 3000 مجلد والخزانة الكتانية بها على قول صاحبها نحو 14 الف مجلد وهي اكثر نفائس وهذه كلها بفاس.

والخزانة الزيدانية بمكناس بها نحو 5 آلاف مجلد ومجموعة كبيرة من الظواهر والوثائق المخزنية وخزانة وزان التي انتفع بها الفقيه الرهوني في تأليف حاشيته المشهورة ويغلب عليها كتب الفقه. وخزانة الصويرة من تحبيس السلطان سيدي محمد ابن عبد الله العلوي بها نسخة من المدارك يقرب تاريخها من عهد المؤلف. وخزانة ابنزو بها نحو الف مجلد مخطوط وخزانة "ايت اعياش وبها كثير من النفائس كتاريخ المقرري لعلماء"

مراكش وفاس وغيره وخرافة أميت يوسي وهي مثل سابقتها
والخرافة الناصرية بتمجروت من أغنى الخزائن المغربية قيل
أن بها من شروح البردة والهمزية فقط أكثر من 300 شرح
إلى غير ذلك مما لو تتبعناه لطل بنا الحديث.

وهذا مما يدل على نضج الفكر المغربي في الماضي
وانتشار القراءة وبالتالي العلم والمعرفة في البوادي كما في
الحواضر وشدة الإقبال على الطلب والتحصيل من سائر طبقات
الشعب. فإذا رأينا ما كان لاسلافنا من العناية بتثقيف عقولهم
وتوسيع دائرة معلوماتهم بالمطالعة وأنواع الدراسة، على قلة
الكتب وصعوبة اقتنائها في عصرهم وكثرتها وسهولة ذلك في
عصرنا مع ما نحن عليه من الزهد فيها والانصراف عنها علمنا
سر تقدمهم وتأخرنا وارثائهم وانحطاطنا فإلى الكتاب وإلى
المكتبة وليحي الكتاب ولتحي المكتبة!...



المتنبى في رأي طه حسين



لم اقرأ - فيما قرأت عن المتنبى - لكاتب قديم او حديث من رأي كان اشد زراية وابلغ تنقيصا لشخصية الشاعر ونفسيته الحساسة من هذا الرأي الذي يجمله الدكتور طه حسين في بضعة سطور بعد ان يمهد له السبيل بالكلام على مصر وكافور وقضية المتنبى معها. ودونك ما يقوله الدكتور في الفصل الثالث من الكتاب الرابع من مؤلفه (مع المتنبى) ص. 539 :

«والذي اريد ان اصل اليه من هذا الحديث الطويل هو ان المتنبى قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه، وما اكثر ما يخدع الناس عن انفسهم. ولكن الغريب ان المتنبى لم يخدع نفسه وحدها وانما خدع معها كثيرا جدا من الناس فظنوا به الفلسفة وليس هو من الفلسفة في شيء. وظنوا به الحرية والكرامة واما الضيم وليس هو من هذا كله في شيء. وانما هو رجل من اهل زمانه لم يمتاز منهم باخلاقه وانما امتاز منهم بلسانه كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء، فهل صحيح ان المتنبى لم يمتاز بشيء عن غيره من الكتاب والشعراء وانما مزيتة الكلام كغيره من الكتاب والشعراء؟ او ان لسان الوطنية المصرية والعصبية الاقليمية هو

المكلم حينئذ والدكتور طه حسين قد قصّ جلباب الباحث العايب ليلا يشهد الناس على جده في القول ولا سيما مع اصطناع الغرض ونبد النزاهة جانبا؟...

وأول ما في هذا الكلام من الخطأ انه يغمز سائر الكتاب والشعراء بالتجرد من الفضائل النفسية والمحاسن الخلقية ويقصرهم على صناعة الكلام وشقشقة اللسان فيجعل المتنبي وسائر الادباء - والدكتور منهم بلا شك - انما يمتازون عن اهل زمانهم بالسنتهم ولا حظ لهم في الخلق او الفضيلة ولا نصيب لهم من الفلسفة او التفكير. وهل يوافق على هذا احد اوتي شيئا من التمييز او كان على جانب من الاطلاع؟

فمن هم وضعة القوانين الخلقية والدساتير التربوية في كل عصر واقليم وفي كل امة وجيل غير من يحمل عليهم الدكتور هذه الحملة الشعواء من الكتاب والشعراء؟

بلى! ومن هم المفكرون الذين يسبقون عصورهم ويرتجلون النظريات الفلسفية قبل ابانها ويحللون المشاعر الانسانية ويشرحون دوائر النفوس غير هذا الصنف المملهم من الناس اعني الكتاب والشعراء؟

ولله در شوقي اذ يقول: انتم الناس ايها الشعراء!

اما انا لا نعلم الدكتور الفاضل هذا وانه ليعلمه ويعلمه احسن من غيره، ولكننا نلقن من لم ينضج من القراءة ونبيه من يخدع من الشبان. واما بخصوص الدفاع عن المتنبي فسوف

ندع الكلمة للدكتور نفسه فنراه وهو ينقض رايه في الشاعر
ويثبت له كل ما نفاه عنه من الفضائل ويراجع الانصاف ويسمو
به الى اعلى المراتب، وهكذا يرد طه حسين على طه حسين
ابلق رد ويكفيينا عن غير قصد مؤونة ابطال كلامه والاحتجاج
عليه بالحجج التي مهما تكن قوية فلن تبلغ قوة اعترافه هو
واقراراه على نفسه.

واذا تأملنا كلام الدكتور في تلك الفقرة وما قبلها وما
بعدها، رأينا يتلخص في ثلاث نقاط: انكار ان يكون
للمتنبي فلسفة بل شيء من الفلسفة. انكار اخص ما امتاز به
المتنبي من الاخلاق كالحرية والاباء الكرامة. ومساواة المتنبي
للشعراء عموما في مزية القول المجردة بحيث لم يفضلهم بشيء
وللرد على الدكتور في النقطة الاولى نأتي بقوله
ص 86 « وقد انشد للمتنبي

يدفن بعضنا بعضا ويمشي اواخرنا على هام الاوالي
وكم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال
ونصه «وما اراني في حاجة الى ان انبهك الى ان هذين
البيتين قد اثرا في التشاؤم العلائي وما نشأ عنه من فلسفة
تأثيرا بعيدا»

وقوله ص 388 «واما البيتان الاخران فقد وثب فيهما الى
معنى فلسفي رائع فتح به لابي العلاء بابا من الشعر اتى فيه

بالاعاجيب واكبر الظن ان المتنبي قد ظفر بهذا المعنى في بعض قرائته الفلسفية وذلك حيث يقول:

اذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقنت ان الموت ضرب من القتل
وما الدهر اهل ان تؤمل عنده حياة وان يشتاق فيه الى النسل،
وقوله ص 389 «ومع ذلك فما اريد ان ادع هذه القصيدة

دون ان اثبت هذين البيتين اللذين فتح بهما المتنبي ايضا بابا من ابواب الفلسفة المحزونة المتشائمة لشعر ابي العلاء:

سبقنا الى الدنيا فلو عاش اهلها منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب وفارقها الماضي فراق سليب،
وقوله ص 391 «ولكن لا ندع هذه القصيدة... دون

ان نرى هذه الابيات التي تصور احسن تصوير علم المتنبي بطباع الناس وحرصهم على الحياة وتفتح لابي العلاء بابا من ابواب الفلسفة والتفكير. وذلك قوله:

ولذيذ الحياة انفس في النفوس واشهى من ان يمل واحلى
واذا الشيخ قال «اه فما ممل حياة وانما الضعف ملا،
وقوله ص 397 «ثم ينتهي المتنبي بهذه القصيدة الى فلسفة

مظلمة حزينة اقل ما يقال فيها انها تصور شكه في خلود النفس وانحرافه بهذا الشك عن طريق المسلمين واحساسه التعب من هذا الشك والارتياب وتفتح بابا فلسفيا «اخر لابي العلاء.
واحب ان تلاحظ ان المتنبي يصطنع في هذه الابيات لغة النظر واصحاب الكلام اكثر مما يصطنع لغة الشعراء وسيقلده

ابو العلا في هذا النحو من التعبير كما يذهب مذهبه في
هذا النحو من التفكير، واحب ان لاحظ آخر الامر ان
البيت الذي يختم المتنبي به قصيدته صورة رائعة مظلمة لليأس
الفلسفي المهلك الذي يوذن بالشيخوخة وما يتبعها من العجز
والاعياء، وهذا كله حيث يقول:

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الاعلى شجب والخلف في الشجب
فقليل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته اقامه الفكر بين العجز والتعب،
وقوله ص 604 «ثم انظر آخر الامر الى هذه الابيات التي
تصور ادعائه للقضاء وصبره على المحن، ولكنها تنتهي به الى
أنه هي اليأس القائم الذي ليس وراءه امل ولا رجاء»:

فان امض فما مرض اضطباري وان احمم فما حم اعتزامي
وان اسلم فما ابقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام
تمتع من سهاد او رقاد ولا قامل كبرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى سوى معنى اقتباهك والمنام
والمتنبي في هذه الابيات الاخيرة يبلغ الفلسفة العليا
ويرتفع عن نفسه وسجنه ومرغه وما يحيط به من الاحداث الى
التفكير في طبيعة الموت وما يكون وراء القبر... الخ.

ونكتفي بهذا القدر من كلام الدكتور الذي اثبت فيه
للمتنبي فلسفة وفلسفة عليا وعلماء بطبائع الناس وتأثيرا قويا
في فيلسوف المعرفة. فيا ليت شعري انسى الدكتور كل هذا

لما قال ما قال في ص 539 ام كان هو ايضا ممن خدعه
المتنبى ولم يفتن لخداعه الا بعد ان سجل هذه الاعترافات؟...
اما النقطة الثانية فهذا كلامه الصريح في ابطالها، قال ص
597: «ولكن المتنبى قد تغنى خزنه والمه وما احاط بنفسه
من الكوارث والخطوب في شعر لم يقصد به الى مدح ولا هجاء،
وانما قصد به الى الغناء وحده. كان طائرا تعود الهوا الطلق
والفضاء العريض، يرتفع في السماء ما اتاحت له قوته العنيفة
ان يرتفع، فاذا اراد الراحة لم يقع الا على الشواهد من قمم
الجبال، فاذا هو الآن سجين في قفص ضيق لعله من الذهب
المرصع بالوان الجوهر، ولكنه قفص على كل حال، وكان
جوادا مرحا فرحا حياته كلها في العدو والغزو، ولذته كلها
في المرح والنشاط، لا يطمئن ولا يرضى الا اذا مضى امامه
في البيد والمهامه، مستمتعا بحر النهار وبرد الليل او اقتحم
الصعاب والعقاب الى العدو ثملا بنشوة الظفر او ألم الهزيمة،
فاذا هو الآن مرتبط في الفسطاط عند قصر كافور، قد مضى
الشكيم حتى مل مضغ الشكيم وقد افنى مرجه ونشاطه في هذه
الحركات العنيفة المرحية التي ياتيها الجواد الاصيل في الرباط
لا تقدمه ولا تؤخره فاذا طال عليه ارضته وعنته وردته الى
الخمود والفتور».

فهل بعد هذا الكلام الجميل في تصوير حرية المتنبى

وشغفه بها وحنينه اليها دليل على اثبات ما نفاه الدكتور من ذلك وتجاهله وانكره انكارا كلياً؟

ودونك عبارات اخرى له في هذا الصدد؛ قال بعد هذه الابيات ص 569:

ومن هوى كل من ليست مموهة

تركت لون مشيبي غير مخضوب

ومن هوى الصدق في قلبي وعادته

رغبت عن شعر في الرأس مكذوب

ليت الحوادث باعنتني الذي اخذت

مني بحلمي الذي اعطت وتجريبي

فما الحداثة من حلم بمائعة

قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

فهذا الكلام من اروع الشعر واجمله، يعجبني فيه هذا

الانتقال من ايثار الجمال البدوي الصريح الذي لم يصنع ولم

يتكلف الى ايثار الشيب الواضح الذي لا يخفيه الخضاب. ثم

يعجبني ايضا عدول الشاعر الى الحق واعترافه بانه يحتمل

المشيب كارها له وراغباً عنه بعد ان صرح بانه لم يرد ان

يخفيه بالخضاب. فهو يؤثر الصراحة على النفاق وهو يؤثر

الصدق على الكذب، وهو يؤثر ان يكون شجاعاً تؤذيه الشجاعة

وتعنيه على ان يكون منافقاً يضر نفسه بالآمال والاهام،

وقال معلقاً على قصيدة (عذيري من عذاري) ص 261 :

فانت ترى في هذه القصيدة اعترافه بالحيبة واستسلامه المحنة،
وضيق نفسه بما يلقي من الشر وبأسه من تحقيق الامل
ولكنه مع ذلك حفيظ على كرامته، حريص على عزته، لا يريد
ان ينزل عن شرفه مهما تكن الاحداث،
وقال فيما كتبه على قصيدة (لا افتخار الا من لا يضام)

ص 251 : «والشيء الثاني الذي تدل عليه هذه القصيدة ان
نفس الشاعر قد اوديت حقا بهذه المحنة الجديدة، واوديت في
اعماقها. فالشاعر محزون، وربما كانت هذه الكلمة اضعف
من ان تؤدي ما كان يجد الشاعر من الالم بعد خيبة امله في
بدر، وان شئت فقل : ان الشاعر في هذا الوقت كان يجمع
في نفسه بين خصلتين متناقضتين او بين خصال متناقضة: فهو
قد احس الذل وانكسرت له نفسه، واحتمل ما لم يتعود ان
يحتمل من الضيم، وهو يجد لذلك لذعا اليما لا يكاد يطيقه ثم
هو يحس كأن نفسه الاولى قد ثابت اليه وكان عزمه القديم
قد راجعه، وكان شيئاً ينجيه من اعماق شبابه الماضي يدفعه
الى ان يثور أيباً للضيم نايباً عن الذين ارادوا ان يضيموه،
وهو من اجل ذلك يحس كبر نفسه وعزتها وارتفاعها عن
صغائر الامور »

فها انت ترى ان كل ما نفاه الدكتور عن المتنبي من
الفضائل الخلقية في تلك الفقرة الموجزة قد عاد فائتته له وحاله
به في غير موضع من كتابه باسسط عبارة واحسن وصف، وزاد

على ذلك اشياء اخرى مما لم يكن ذكره في تلك الفقرة. ولو
تتبعنا كلامه في هذا السبيل لطال بنا الامر وكفاك من
القلادة ما احاط بالعنق.

واما النقطة الثالثة وهي مساواة المتنبي للشعراء عموما
وعدم امتيازه عنهم بشيء فلا ندري ما يأخذ وما نذر من كلام
الدكتور في ابطالها والكتاب كله اشادة بمواهبه الفنية
ومميزاته العديدة التي لا يشاركه فيها احد من شعراء العربية
سواء القدماء منهم والمحدثون؟ وقد علم ما يمتاز به اسلوب
الدكتور في الكتابة من الاطناب الكثير وتكرار الجمل واعادة
الكلمات، فهذا يمنعنا من كثرة نقل كلامه خوف التطويل
ولكنه في الوقت نفسه يكون حجة واي حجة على اثبات ما
نذهب اليه من ان الدكتور في تنقيصه للمتنبي انما كان
قادرا عن عصبية اقليمية ونعرة قومية، فلما جاوز المحل الذي
اوحى اليه شيطانه فيه بكتابة تلك الكلمة المغرضة رجع الى
رشده وانصف الرجل واعطاه حقه من التقدير والاعجاب في
كلمات بليغة تفيد بتكرارها واطنابها تأكيد لما يقول
وتحقيقا لما يرثي.

وهذه بعض اقواله في هذا المنحى: قال في ص 311:
"وليس من الاسراف في شيء ان يقال ان للمتنبي في سيف
الدولة ديوانا خاصا يمكن ان يستقل بنفسه. وهو ان جمع في
سفر مستقل لم يكن من اجمل شعر المتنبي واروعه واحقه

بالبقاء بل من أجل الشعر العربي كله وأروعه وأحقه بالبقاء
وقال في ص 319 «وخطة ثالثة يمتاز بها شعر المتنبي
في هذا الطور وهي أنه قد استطاع لا أن ينشيء فنا جديدا
من فنون الشعر، بل أن ينمي فنا من هذه الفنون ويقويه،
ويكثر القول الجيد فيه، حتى يمنحه من الامتياز والاستقلال ما
يجعله فنا قائما بنفسه. أريد بهذا الفن وصف الجهاد بين المسلمين
والروم، ثم قال بعد كلام طويل من هذا المعنى أكثره على
طريقة الدكتور مما يؤكد بعضه بعضا، ص 321 :

«ومن هنا تجد في وصف المتنبي لحروب سيف الدولة
عند الثغور فتوة عربية اجتماعية أن صح هذا التعبير، وترى
هذه الفتوة العربية الاجتماعية تشيع في وصف المتنبي حياة
قوية مضطربة شديدة الاضطراب، كأنها الكعرباء لا تكاد تظل
بهذا الشعر حتى ينتقل إليك ما صور فيه المتنبي من حياة
هؤلاء المجاهدين، وما كان يملؤها من نشاط فيه الأمل
والإبتهاج وفيه الاكتئاب والابتئاس، وفيه الثقة بالنفس والإيمان
بالحق والارتفاع عن صفائر الأمور دائما.

ونحن نستطيع أن نفهم عجز الأستاذ بلاشير عن أن
يذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي، وأن نعلله وأن لم يكن
في حاجة إلى هذا التعليل. فجنسية الأستاذ واختلاف مزاجه
وطبعه وأخشى أن أذكر دينه أيضا، كل هذا يجعل تأثيره
بهذا النحو من شعر المتنبي قليلا ضئيلا. وربما جعله تأثيرا

عكسيا وربما دفع الاستاذ الى الغض من هذا الشعر، والازدراء له. اما نحن فان هذا الشعر يثير في نفوسنا عواطف اخرى ويستتبع فيها حركات لا تنتظر من نفس الاستاذ بلاشير وامثاله من العلماء الاوربيين،

فمرحى للمتنبى الذي استطاع ان يؤثر في دكتورنا المحترم، كل هذا التأثير ويجعله يشعر بشعور المسلمين ويعني على العلماء الاوربيين عدم الاحساس بجمال شعره في وصف الجهاد المقدس مما نخشى ان يؤدي بنا الى القول ان القران الكريم على بلاغته واعجازه لم يستطع ان يؤثر في الدكتور مثل هذا التأثير لما كان يكتب تأليفه العظيم (في الشعر الجاهلي) فقال ما قال وسجل ما سجل. ولكن لعل الدكتور تاب لله توبة نصوحا مثل توبة المتنبى من القرمطية التي الصقها به الدكتور الصاقا. وان كان هو لم يرض من الشاعر هذه التوبة وعدّها من ذنوبه التي لا تغفر!

وهاك اقوالا اخرى للدكتور في الموضوع. قال ص 328: «وخصلة رابعة يمتاز بها شعر المتنبى في هذا الطور ايضا وهي انه قد وثب بشعره حين اتصل بسيف الدولة وثبته الاخيرة التي رفعته الى الارجح وضمنت له مكانه بين الفحول من شعراء العربية... لانه ملك ناحية الفن حقا، وجعل يتصرف بالفاظه ومعانيه كما كان يتصرف بها الفحول، واثبت شخصيته قوية واضحة ممتازة من غيرها، واصبح مرآة لنفسه لا لابي

تمام ولا للبحثري، واصبحنا نستطيع ان نقرأ القصيدة من شعره
فنقول: انها قصيدته هو لم يتاثر بها هذا الشاعر او ذاك». .
وابلغ من هذا قوله في القصيدة الاسلامية التي مطلعها: ليالي
بعد الظاعنين شكول، ص 44: «المتنبي يبدأ القصيدة بنفسه
حزينا مقتخرا، ويختم القصيدة بنفسه مبتهجا منتصرا، ويمنح
اكثر القصيدة وخير ما فيها لا لسيف الدولة وحده، بل له
ولجماعة المجاهدين معه في سبيل الله الذائدين عن حوزة
الاسلام وحسب العرب، ولجماعات اخرى من المسلمين لاهية
عن الجد ساهية عن المجد منصرفة الى المخازي والآثام.
فالشاعر مغن، والشاعر مادم، والشاعر قاص. والشاعر هاج،
والشاعر مفاخر متحمس، والشاعر يجمع اكثر فنون الشعر في
هذه القصيدة التي لم تسرف في الطول».

فانظر كيف جمع المتنبي اكثر فنون الشعر حتى القصص
الذي هو من اندر النادر في الشعر العربي، فهل هذا لا يعد
امتيازا بين شعراء العربية على العموم؟
واختم بما قاله الدكتور متحدثا عن نفسه في انفعال
عظيم وتأثر لا يوصف بالمتنبي وشعره ص 628: «واقراً هذه
الابيات التي لا اعرف اجمل منها ولا اصلح للغناء:
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئا قتيمة عين ولا جيد

يا ساقبي أخمر في كؤوسكما

ام في كؤوسكما هم وتسهيذ

اصخرة انا مالي لا تحركني

هاذي المدام ولا هاذي الاغاريد

اذا اردت كميت اللون صافية

وجدتها وحبيب النفس مفقود

اما انا فمفتون بهذه الابيات وبالثلاثة الاخيرة منها خاصة.

وما اعرف ان وجدت في كل ما قرأت من الشعر العربي ما يشبهها جمالا وروعة، ونفاذا الى القلب وتأثيرا في النفس ومهما احاول فلن استطيع تصوير ما يملا نفسي من الحزن حين اسمع تحدثه الى ساقبيه وسؤاله اياهما عما في كؤوسهما اخمر هو ام هم وتسهيّد؟

ومهما اقل فلن استطيع ان اصور اعجابي بهذا البيت الذي يسأل فيه عن نفسه، ما له لا يطرب للمخمر ولا يطرب للغنأ. وما اعرف بيتا يصور السكون وجمود النفس وموت القلب خيرا من هذا البيت، وهو على تصويره الرائع للسكون والجمود والموت من اشد الشعر تحريكا للنفوس واثارة للطرب الحزين في القلوب.

ثم انظر الى هذه المحسرة التي يصيح بها البيت الاخير صيحة اليأس والقنوط، لانه يبتغي المدام فيظفر بها ولاكنه وحيد قد فقد حبيب نفسه، فهو لا يستطيع ان يلهو وحده ولا ان ينعم بلذة وحيدا.

الى هنا تنتهى مرعمين من هذه الانتقال التي أفدنا منها
تزييف ما زعمه الدكتور عن المتنبي في تلك الفقرة الغربية ،
وافدنا منها ايضا تعريفا بفضائل المتنبي ومزاياه وشاعريته البليغة
وفنه البديع .

والحق ان الدكتور في تلك الكلمة السوداء عن المتنبي
كان في حالة غضب وتوتر عصب من قراءة هجو المتنبي
«للاستاذ كافور المصري» وللغضب سلطان على النفوس لا يقهر
ولذا فان الحاكم مطالب شرعا ان لا يفصل بين الخصوم في
ساعة الغضب . انما الدكتور الفاضل لم يعبا كما هو شانه بهذا
التقليد ولم يتقيد بذلك الواجب فحكم حكما مسمطا على
المتنبي وازدراه وهضم حقه وكاد ان يعدمه من الوجود . وذلك
برغم قوله في ص 618: «وما ينبغي ان نحجب الشعراء او نبغضهم
لانهم مدحوا او هجوا. أو لانهم مدحونا نحن او هجونا . وانما
ينبغي ان نعرف الشعراء او فنكرهم لانهم مدحوا فاحسنوا المدح
وهجوا فاجادوا الهجاء ، وهذا رأي صحيح وان كان الدكتور
لم يعمل به مع الاسف .

والآن يخيل لي اني دأبت حضرة الدكتور بهذه الكلمات
كما دأب هو المتنبي بكتابه اكثر مما دأفت عن المتنبي
ومحصت الزور الذي قيل فيه ، والا فلا حاجة بالمتنبي الى هذا
الدفاع وهذا التمحيص وهو عند الدكتور نفسه في غير تلك
الفلته بالمكان الذي رايت وعند الادباء جميعا ذلك الشاعر الذي
ملا الدنيا وشغل الناس .

وما أحسن ما قال الدكتور في كلمته الختامية في نفس
كتاب (مع المتنبي) ص 706 وهو : «وانما اريد ان لاحظ ان
هذا الكتاب ان صور شيئاً فهو خليق ان يصورني انا في بعض
لحظات الحياة اثناء الصيف الماضي، اكثر مما يصور المتنبي .
وانه لمن الغرور ان يقرأ احداً شعر الشاعر او نشر الناثر حتى
اذا امتلأت نفسه بما قرأ او بالعواطف والخواطر التي يثيرها
فيها ما قرأ، فاملئ هذا او سجله في كتاب، ظن انه صور الشاعر
كما كان، او درسه كما ينبغي ان يدرس، على حين انه لم
يصور الا نفسه ، ولم يعرض على الناس الا ما اضطرب فيه
من الخواطر والآراء .»



كتاب التصوف الاسلامي

للدكتور زكي مبارك

هذا الكتاب طالما قرأت عنه وسمعت التنويه به ولاكن
من لدن مؤلفه حضرة الدكتور زكي مبارك الذي قلت عنه منذ
عشر سنوات انه ليس ممن يعمل بقول الشاعر:

ويسى^١ بالاحسان ظنا لاكن هو بابنه وبشعره مفتون

والحق اني تشوفت اليه وحرصت جهدي على اقتنائه، لكن
ظروف الحرب القاسية حالت بيني وبين الحصول عليه والتمتع
بالانقطاع اليه مدة من زمن، حتى اعارني اياه صديق عزيز في
هذه الايام فلفت نظري بضخامته وكبر حجمه مع كونه في
جزأين اثنتين، لاني لم اكن أتصوره كذلك، ثم لم البث ان
انسللت من مشاغلي وعكفت عليه فقرأته في فترات متلاحقة
لاني لم اعد املك امري معه حتى اتممته. اذ واجهت منه كتابا
ممتعا حقا، وبحوثا طويلة عريضة يزيد بها سحر البيان وسحر
الفصاحة لذة واعجابا.

وهل ينكر احد بلاغة الدكتور مبارك وجمال اسلوبه
الكتابي، بل شدة تأثيره وقوة حساسيته التي تعدني قارئه فيصير
يشعر بشعوره ويحرص حرصه على اثبات هذه النظرية وتزييف
تلك ؟ .

وهل لغير الدكتور مبارك تلك المقدرة البيانية والعارضة
الكتابية التي يمزج فيها بين الحقيقة والخيال والجد والهزل
والتجرد والهوى فيأتي أسلوبه مشرقا جميلا يجيش بالروعة
والفتون ويفيض بالحسن والاحسان ؟.

اما انه لكاتب عبقرى وامام من ائمة البيان اخضع اليراع لحكمه
فهو يجري على حسب هواه، لا يجمع الا اذا ارخى له العنان
ويسلس في المكان الذى لو ترك لنفسه لجمع واظهر ما امتاز
به هو زجه بنفسه في كل مباحثه حيث يسبغ عليها ظلا من
شخصيته القوية بما تشتمل عليه من عواطف وميول واغراض
واهواء، لا يكتف شئنا من ذلك ابدا كما يفعل غيره من الباحثين
فهو ذاتي في كل كتابته وفي كتابته الموضوعية كما في الانشائية.
وانا وان كنا لا نجهل مزية التجرد في البحث فاننا
نحب من الدكتور مبارك طريقته هذه التي خرج بها على
مواضع الباحثين وهو لا يزال يعد منهم، وما ذلك الا للباقة
وحسن تصرفه في اساليب الكلام، على اذا نستكره منه
افراطه في التحدث عن نفسه والتطاول بآثار قلمه بطريقة
بهلوانية لا يتحملها اشد الناس اغضاء بل اعجابا به. ولعل هذا
هو السبب فى تحامل الكثير من الكتاب عليه. وفى كتاب
التصوف الاسلامي شواهد كثيرة على ذلك. منها مسألة وحدة
الوجود التي طنطن كثيرا بانه شرحها شرحا لم يسبق به. وما
اظنه اقتنع هو نفسه بذلك الشرح !

ثم اننا نلاحظ ان هذا الكتاب فاقد التنظيم لم يضع له الدكتور تصميمًا اوليًا يسير عليه وانما هو جملة مباحث مستقلة كتبت في مناسبات مختلفة، ثم ضم بعضها الى بعض وكون منها الكتاب، بدليل تكرار بعض المسائل وتقسيم بعض الفصول التي تقدمت في الجزء الاول - في الجزء الثاني .

ولا نفعل الاشارة الى ان الدكتور لم يستعن في كتابه بشي من المصادر الاجنبية الا قليلا جدا، الامر الذي كان يزيد كتابه طرافة وقيمة. خصوصًا وان لكبار الفلاسفة والمفكرين الاوربيين "اراء" في التصوف الاسلامي تختلف بحسب اهواء ونزعات اصحابها. فمنها النزيه الذي رفع من قيمة التفكير الاسلامي في هذا الباب، فكان يحق له ان يعتضد به ويطلع قراءه عليه. ومنها المعرض الذي كان عليه ان يناقشه ويرده الى صوابه بتلك الروح التي عهدنا منها الغيرة على الحق والانتصاف للعروبة والاسلام

في كثير من المواطن .

وقبل ان نختتم كلمتنا هذه نشير الى بعض الهفوات التي استرعت انظارنا اثناء الالمامة العجلى التي المناها بالكتاب لان الدكتور نفسه ممن يحب تتبع امثاله في كلام غيره. وان بنا سنقتصر منها على ما لا يحتاج الى بسط موضوعه ولا فرش موضعه.

وذلك مثل ما جاء في صفحة 137 جز اول عند الكلام على الحكم العطائية من قوله : وظفرت بعدة شروح اشهرها

شرح الرندي وشرح الشرقاوي ، وهذه الشهرة بالنسبة الى الشرقاوي لا تصح ، والا فإين ذهب زروق الذي شرحها باكثر من عشرين شرحا وكلها معتمدة عند الصوفية فهما وذوقا وتنزيلا وتطبيقا وكثير غيره ممن لا يجيء شرح الشرقاوي بالقياس اليهم شيئا مذكورا .

ثم الرندي بضم الراء نسبة الى رندة بضمها لا بفتحها كما ثبت عند الدكتور وهي مدينة بالاندلس معروفة ، وهو محمد ابن عباد امام جامع القرويين وخطيبها المشهور ولا جدال في ان شرحه من اشهر الشروح بل اشهرها على الاطلاق .

وجاء في ص 337 ج ل : «وكان النساء في القرن العاشر يملن شعورهن ، وكنت احسب ذلك من بدع هذه الايام ، وكيف يحسب الدكتور ذلك من بدع العصر او القرن العاشر ، وقد كان معروفا عند العرب من زمن الجاهلية ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأئمة السنن : (لعن الله الواصلة والمستوصلة)؟

وقال الدكتور في ص 352 : «واحراق البخور لا يحسنه كل انسان ، وانما هو فن يجيده «المغرب» وحده» ولهذا كان للمغاربة سوق رائجة في هذه البلاد يعني مصر - ومنهم وحدهم تطلب الكنوز وعليهم المعتمد في كتابة الاحجية لجذب الاليف الى الاليف ، وفي «العبادة البيضاء» اسرار لا يدركها الا الراسخون في علم الغيب ، هذا كلامه ونحن نقول نعم ! ان المغرب يجيد

ذلك، ولكن عند الاغبياء والنسطاء الذين تنطلي عليهم الحيل
ويعمي الطمع ابصارهم، ولذلك له سوق رائجة في بعض البلاد
كاسدة في غيرها من البلاد التي انعم الله عليها بالذكاء والفهم.
ولا نقول ان تلك البلاد هي مصر، فمصر عزيزة علينا وادبنا
يمنعنا من ذمها بالحق او الباطل، ولكن مقتضى هذا الكلام
الذي ليس الدكتور فيه باول يجعل مصر كذلك، بل انه ينص
عليه نصا بعد ذلك بصفحات قلائل حيث يقول في ص 368:
«واكثر اهل مصر لا يعقلون».

والواقع انه كثير ما اتهمت الصحافة المصرية المغاربة
بالتدجيل والسحر والنصب والاحتيال، وما عرفت ان من لوازم
هذا اتهام المصريين في العقل والادراك. ولكن هل مصر
بريئة من تلك التهمة والتاريخ يشهد عليها بالعراقة في ذلك
والقرآن يزكي شهادته؟ وهل علم حضرة الدكتور وغيره
ممن يلقون الكلام جرافا في هذا الباب ان المغاربة من هذا القبيل
الذين يذهبون الى مصر، انما يذهبون لتكميل معلوماتهم
والتوسع في هذه الفنون ليصيروا من «الراسخين» في علم
الغيب، فهم يعلمون من خبايا زوايا مصر ما لا يعلمه المصريون
او بعض المصريين، وان الشهرة التي نالوها في مصر في هذا
الشان انما جاءتهم من اجل ان (مغنية الحي لا تطرب) والشواهد
على ذلك كثيرة لا حاجة بنا الى ايرادها.

وعلى كل حال فالانصاف ان التدجيل والسحر والتكهن

جميعها بضاعة مشاعة بين مصر والمغرب وغيرها من الشعوب الشرقية والغربية المتمدنة وغيرها. ولا يصح تعيير واحد من الشعوب بها، وهي لا تكون الا في الطبقات الواطية التي ما خلا منها شعب ولا امة. ومن غفل عن هذا فقد تجاهل اثاره العصور الجاهلية والبدائية في المجتمعات واخلاق الشعوب. وجاء في ص 16 ج في قوله: «ويمكن الحكم بان اول مشكلة عقلية عرضت لاولئك القوم هي الظاهر والباطن او الشرع والحقيقة، ثم استشهد بآية (ثم استوي الى السماء وهي دخان) على ما ورد في القرآن مما يثير هذه المشكلة. وفي استشهاده هذا بعد، واولي ما احتج به هنا قصة موسى والخضر المعروفة وهي حجة الصوفية القائمة على التفريق بين الشريعة والحقيقة.

وفي ص 20 ج في نسب الدكتور مبارك كتاب تلبيس ابليس المشهور الى ابن القيم وهو غلط، فان هذا الكتاب للحافظ ابي الفرج بن الجوزي معلوم النسبة اليه.

وفي احدى ثورات الدكتور النفسية قال في ص 247 ج في: «يرحمكم الله ايها المؤلفون في الاخلاق، فاكثركم من اهل الجبن والتلفيق. واي مظهر للجبن اقبح وابشع من ان تصنف الكتب الطوال في مثالب الصوفية على حين يترك الملوك الظالمون في العصور الماضية بلا رقيب ولا حسيب؟».

وهذه سفسطة فارغة وغلط بين موضوعين. فان الوزرا

والمملوك ما كانوا يفعلون ما يفعلون باسم الدين والغلو فيه. اما الصوفية فانهم اقاموا انفسهم مقام الهداة المرشدين فكان حقا عليهم ان يتجنبوا اسباب القالة ومواطن الريية، ولذلك صح نقدهم على ما يصدر منهم من ذلك وباقلام اخوانهم الصوفية قبل غيرهم.

ومع ذلك فهل اذا ترك نقد المملوك والوزراء - وهو لم يترك - يترك ايضا نقد الصوفية وكل زائف عن الصراط المستقيم؟ والدكتور نفسه لم ينقد الصوفية كثيرا في كتابه هذا وغيره ويكتف بذلك عن نقد المملوك والوزراء؟

لهذا قلنا ان هذه ثورة من ثوراته النفسية او شطحة من شطحات الصوفية اعدته بها هذه البحوث فلا نواخذه عليها.

هذا ولا يفهم احد ان هذا تنقيص من قيمة الكتاب او قدح فيه، فقد قدمنا انه من خير الكتب التي تملك على الانسان وقته ويجد فيها من اللذة والسرور ما لا يجده الا في قليل غيرها. وبالجمله فهو فتح جديد في ميدان البحث الفلسفي والاخلاقي والديني ما اجدر الاقلام المثقفة امثال قلم الدكتور مبارك ان تتناوله بالدرس والتمحيص وتخرج لنا من ان لآن ثمرات طيبة الاكل دائية القطوف.

القلب المنتحر

يا رب ان حياة الفضيلة حياة شاقة تنتابها المتاعب من كل جهة، وهذا المخلوق الضعيف الذي يسمى بالانسان لا يقدر على محاربة كل القوات الخفية والمنظورة التي تصده عن سلوك ذلك السبيل ! ...

ان النفس التي بين جنبيه لتميل كل الميل الى حياة اللهو والعبث وتحب اشد الحب ان تتحلل من قيود الاخلاق والواجبات، فتغمس في لذائدها ومشتهاياتها وتتمتع بكل محبوب لها وترتشف كأس هواها حتى الثمالة وما تسد لها جوعة ولا يروي لها عطش ! ...

وان القلب الذي ينحني عليه صدره ليكاد يذوب بين ضلوعه مما يعتلج به من الصبايات الجامحة والرغبات الملحة بريده النظر فهو على الدوام يتلقى منه رسائل الحب والغرام. وان فتر برهة عادت الذكريات تفرخ فيه وساوسها فتشير ما به من شوق وهيام وتفتنه اشد الفتون ! ..

انا لا احب النفاق ولا ارضى حياة المنافقين، فلا اكون باطني يتأجج حبا وغراما ونفسي تذهب حسرات على من هويت، ومع ذلك انتظاهر بالتقوى والزهد واغض طرفي امام الناس وامده اذا خلوت. لبيست حياة هؤلاء القوم الذين كل

امرهم رياءً وسعة فانا لا اريد ان اكون منهم يا رب!

اذا لا ارأي بدين ولا أجاهر بهوى ولكني اشكو اليك يا رب!

انا لست اغلظ كبدا من ذلك الشيخ الصوفي او الشاعر

الرقيق الذي اصطنعه الصوفية القائل «خلقت الجمال لنا فتنة،

فالجمال خلقك، وهو فتنة للقلوب، هذه القلوب الرقيقة التي

بقدر فنائها في حبك ومعرفتها لعظمتك تحس الجمال وتتذوقه

وتتهالك على ناره او نوره تهالك الفراش على السراج ...

ان من شيوخ الصوفية من كانوا يتخذون الغلمان

كاللؤلؤ المكنون يطالعون في صفحات وجوههم آيات الحسن

والجمال، فانا لست اتقي ولا انقى من هؤلاء الذين ما تصوفوا

حتى ادعوا ان فيهم زيادة على مطلق المومنين وان كنت

لا اقبل طريقهم في الجمع بين الزهد والاستهتار والتكشف

والمتاع، ولا اجعل الدين ذريعة للدنيا، ولا استبدل الشواب

الرعايب ذوات النهود ختامها مسك والعيون ملؤها السحر

والثغور تنطف خمرا وعسلا بالشبان المخانيث.

يا رب انت تعلم اني احجم عن كثير من مناهيك لا

مراعاة للناس ان يقولوا عني ما اكره، فأهون بالناس عندي

لما اعلم من خبهم وخداهم، ولا خوفا من ان اصلي عذاب

جهنم فانك جبلت الانسان او جبلتني انا على الخصوص ارجى

لرحمتك من عذابك، وأوثق بعفوك من عقابك ولكني اهابك

واجلك ان تراني حيث نهيت بالخال التي نهيت عنها فاحجم
وانا خجلان واقدام اذا اقدمت وانا خزيان .

ولقد صرت مما عرفت من تقبيحك للفحشا بحيث لو
ابحتها لتورعت عنها ومما كرهت الى الاثم اني لو تيقنت
بغفرانك لي للقيتك وانا في غاية الندم على ما فات ! ملات
عظمتك نفسي ومهابتك قلبي فهل يضير ان نفحت عليهما ساعة
من نهار نفحة غرام مقدور او تصباهما هوى متاح ؟ ..

لا يا رب ! القلب من صنعك والجمال من خلقك وما
يصطدم بينهما من الالهوا والميول والعواطف والنزعات هو
امر لا تدركه العقول ولا تحيط به الافهام . فانا ماض في
الطريق التي يسرت لها ومع ذلك لا اخلي باطني من نية عمل
الخير والتأسف عليه ان فاتني . . . !

هكذا كان صاحب القلب المنتحر يناجي نفسه وهو على
مائدة الفطور بعد ان هب من نومه متثاقلا متكاسلا ، فانه كان ينام
كثيرا يرى في النوم منقذا ومخلصا من همومه واحزانه ولم
يك كأولئك المحبين الذين يلجأون الى النوم لاجل ان يروا
اطياف احبابهم فما كان به من حاجة الى رؤية من احب في
النوم وهو يظل يراه في اليقظة ويصطدم به اني ذهب بكرة
وعشيا ، انما يحول بينه وبينه طائفة من الاعتبارات هي في
عرف الحب خرافات واوهام وفي شرعه هو حقائق واحكام
كان مرتبطا بعقد زواج مع فتاة هي مثال الطهر والعفاف

والجمال الحي والاثونة الحصة فيرى ان خيانتها من اكبر
الكبائر وان ليس عند غيرها الا ما عندها. فليس من العقل ان
يبيع بضاعة ببضاعة لا يستفضل فيها شيئا بل ربما وكس فيها كثيرا
وكان قبل ان يرتبط بهذا الرباط المقدس وبعده يستحضر
كل قواعد الدين وكل اصول الاخلاق بل ان ما كان يغيب
عنه من النصوص الدينية والمبادئ الخلقية في سائر الاوقات
كان يحضره في الوقت الذي يهم فيه بمقابلة من احب
واطفاء نار شوقه بالاجتماع معه ولو جزء ساعة - كما يقول
ابن الفارض - فيعجب لهذا الذهن البشري كيف يسافر في
اقل من لحظة الى الآفاق المجهولة وكيف يرود ملكوت
السموات بسرعة لا نسبة بينها وبين سرعة الضوء العجيبة ثم
يعود وقد احضر بين يديه الماضي كله بمعقوله ومحسوسه
ومذكوره ومنسيه وفتح امامه بابا يتطلع منه الى المستقبل
المغيب ويقول اياك!

وكان يذكر انه طالما حذر غيره من موقف كهذا
الموقف واستنفذ كثيرا من الشبان من مزلات الغواية
ومداحض الائم فيشتمز ان يرى نفسه تقع فيما يحذر منه
الناس ويتعد ان يستهدف لما لا يستهدف له الا الاغراز
والمستهترون.

هذه هي الموانع التي كانت تمنعه من ان يستغرق في
حبه ومرضاة قلبه وتجعله يتأخر كل يوم خطوة او يقف حيث

هو بدل ان يتقدم خطوات في الغرام الذي ملك عليه ارجاء نفسه وصار شغله الشاغل وفكره الملازم. ولكن من يدري لعل هذا اللجام الذي كان يلجم به نفسه ويكبح به هواه هو نفسه كان يضاعف رغبته المكبوتة ويقوي ميله الى المحبوب فينقاد بحبله الى الغاية المرسومة من حيث يظن انه ينكف عنها؟.. ونهض صاحبنا عن مائدة الافطار وهو مثقل بهذه الخواطر وخرج قاصدا محل عمله فاذا بها على باب منزل صديقتها كأنها تنتظره لتثير كامن غرامه وتهيج بلبله من جديد.

ورأها فانبهر ورجف فؤاده وبدت علامات الاضطراب عليه فلم يدر ما يضع. وكانت هي تلحظه وتدري ما به فتهيأت له تتودده وتجامله بابتسامتها الحلوة التي يشرق منها وجهها ويزيد بها اضطرابه، ولكنه اعرض ونأى بجانبه ومر كأنه لم يرها فلم يحبها ولم يلتفت لجهتها ودخل الى محل عمله وهو يتعثر في اذيال السخط والغضب.

هل يدل ذلك على شيء من الادب فاحري الحب؟ هل كذلك تكون معاملة الرجل المذهب للفتاة الجميلة من معارفه او جواره؟ يا ليت شعري ما ذا يكون اثر ذلك السلوك الخشن في نفسي لونا... لونا حبيبة قلبي ومطمح انظاري؟.. لا، لا، اني لرجل قاس! بل لست برجل فان الرجولة تنافي هذا السلوك الشاذ. كيف اتعرض لها اول مرة واتلطف بها حتى تميل الي واحظى بعطفها ثم اقطع حبلها بهذه الصورة الفظيعة؟

اني لوحشي ضارا هكذا افلت الفرصة الثمينة التي
واقفني في عروس احلامي لوسي قبل خمس سنوات وكانت
ايام رمضان فتجنبت ان التقاها وكان لقاءها اقصى امل لي
في الحياة فغضبت ومضت الى غير رجعة !

وهكذا نحرت قلبي بيدي لما زهدت في الفتاة التي
كنت احبها بكل جوارحي خشية ان يظن الناس اني انما
تزوجتها رغبة في جاه او مال !

وماري الم اكن اجلس واياها على مكتب واحد نتدارس
قصص الحب وقصائد الغرام وتعلمني كيف اصرف فعل احب
بلغتها وتبرج لي تبرج الانثى تصدت للذكر - على حد تعبير
ابن الرومي ، وانا اتحرق شوقا وغراما اليها ولكني اتعمد الا
افهم التعريض ولا اشجع التصريح ؟ ..

يا لله من ذلك الذراع البض الممتليء والصدر الناهد
الخفاق والساق الخدلج الذي ربما اختلف مع ساقي تحت
المكتب فيحدث ما يحدثه السالب والموجب من اسلاك الكهرباء !
ويا لها من ايام جميلة ما اظن انها تعود ابدا وان عادت
فما الفائدة منها وانا بهذا التزمت الرهباني والدم البارد الذي
لا يصلح للحب ولا الحب يصلح له ! ..

وئارت نفس صاحبنا بعد ان اصطدمت هذه الخواطر في
ذهنه عشرات المرات فقام عن مكتبه الذي لم يشتغل عليه
بشيء منذ جلس اليه وخرج ليرى لونا ويسلم عليها ويعتذر

اليها ويستدرجها لاحاديث اخرى ولكنه لم يجدها. وانتظر
طويلا بازاء منزل صديقتها وتردد مرات عديدة بين منزلها
ومنزل صديقتها فلم تظهر له لا من منزلها ولا من منزل صديقتها.
وانما صديقتها التي ظهرت له فحياها وحيته وتبادل معها
بعض كلمات، ورأت مراقبته لبيتها وترصده الطويل لمن فيه
فقوى ظنها بانه حولها يحوم وانه لا بد كلف بها وان كان
يعتريها في ذلك شك قبل اليوم فقد زال ذلك الشك الان
واصبح حبه لها حقيقة لا تقبل الجدل.

ولما رأى هو ان صاحبته غابت وان صديقتها هذه تريد
ان تنكأ جرحه القديم عاد الى محل عمله وجلس الى مكتبه
وحاول ان يشتغل قليلا حتى ينسى ما به.

كان منزل هذه الصديقة يقع في مقابلة المحل الذي
يعمل فيه صاحب القلب المنتحر، وكانت شابة رشيقة القوام
دقيقة القسمات ناصعة البياض حلوة الجسم خفيفة الروح عاطفية
مهندمة لا تقع العين منها الا على ما يستحسن ويغري. وكان
اول ما لفت نظر صاحبنا اليها انها تسكن في ذلك المنزل
وحدها وانه لا يرى عندها رجلا ولا امرأة. ثم لم يطل الامر
حتى علم انها متزوجة وان زوجها لا يحضر عندها الا في يوم
معين من الاسبوع واخبرته هي بذلك تبرعا منها. ورأه هو
فرأى فيه شابا جميلا معذبا يليق بها وتليق به.

وكانت هي لوحدتها تميل الى الرغبة في الحديث مع

صاحبنا والانس به وكان هو متأثرا بظراتها العاطفية يميل
الى الحديث معها ويستحسن جمالها المهندم، ثم تطور الامر
من الاستحسان الى التعلق بالغرام...
وقع الطائر في فخ الصائد فمن ذا يخلصه والصائد لا رغبة
له في اطلاقه والطائر على رغبته في لقط الحب يحب الحرية
ولا يرضى بالسجن والهوان؟..

هنا برزت لونا او قل طلع القمر لولا ان القمر مذكر
في العربية لا تسمى به الاناث، وهي بنت من اسرة فقيرة
تركب من لونا واختها التي تكبرها بقليل وامهما وتسكن
في منزل بطرف الحي، ولا يدري صاحبنا كيف اتصلت بالصديقة،
وكيف تمكنت اواصر المودة بينهما وكانتا من جنسيتين
مختلفتين. انما الواقع انه صار يراها كل يوم في منزل الصديقة
تؤانسها وتعينها في شغل البيت وتواكلها. ويراها تخرج معها
للفسحة وقضاء ضرورياتها، ولم تكن هذه الصديقة من اليسر
والسعة بحيث تستخدم لونا ولا كانت علاقة لونا بها علاقة
الخادم بمخدومتها بل علاقة الصداقة والمودة والمؤانسة والمجالسة.
واهتمت الصديقة بلونا فهندمتها واظهرت من محاسنها ما
كان خفيا والقت بها الى الشارع فتنة للناظرين.

وكانت لونا هذه صبية في الخامسة او السادسة عشرة من
العمر ربعة قمحية اللون صافية خمرة العينين واسعتهما
وعليهما حاجبان اثنيان كانهما خطا ببركار، مبلجان مزججان

خلقة لا صنعة، يتردد نظرك بينهما وبين الهدب الوطف وما
تنطبق عليه فيغزوك السحر والبحر والفتون، وتوخذ عن نفسك
وتسلم قلبك في اول ما تسلم ولا تستطيع ان تقاوم ولو لحظة
واحدة. وتحت ذلك انف منبسط قليلا لو لم يكن كذلك لما
انسجم مع هذا الوجه المنبسط ايضا. وحوله وجنتان موردتان
دائما. وتحتة فم واسع ذو شفتين لمياوئين كأنهما شهدتان
تقطران عسلا، فاذا انفرجتا انفرجتا عن ثغر مفلج مصقول
ولثاث حو معلولة. وما يهزم الفؤاد ويخدر الاعصاب كابتسامة
هذا الثغر التي تشترك فيها العينان والوجه بجميع تقاطيعه ولا
سيما فقرتان تبدوان بجانب الفم وتحت الوجنتين، فيجى من
هذه الابتسامة اشراق وجمال لا يكيفان وانما يحملان المرء على
ان يقضي شهيدا في هذا المعترك ولا يحدر عينه!..

اما النحر والصدر وما عليه والذراعان وما اليهما فاشيا
كلها شهوة واغواء ولا يستطيع الوصف ان يقربها فاحرى ان
يمثلها كما هي!

وكان لها لمة كستنائية اللون حريرية الملمس لماعة
جذابة تعشق من وراء فكيف بها اذا اقبلت تنوس على ذلك
الوجه وذلك القوام اللذين هما من اجمل ما خلق الله!؟
هذه بعض الخطوط التقريبية لصورة لونا التي هي موهبة
من الله لاسرتها الفقيرة وكنز يعوضها ما فقدت من غنى ومتاع
وكم في البيوت الفقيرة من هذه الكنوز الغالية والجواهر

الثمينة تكون سلوة لذويها ومفتاحا لباب الامل والرجاء !
فلما ظهرت لونا في الميدان كانت بلسما شافيا لصاحب
القلب المنتحر من حب الصديقة ورقية نافعة له في الافاقة
من تلك الغشية التي كانت ستجعله مثلة بين الناس .

ولكن المسكين ان كان افاق من حب الصديقة فانه
وقع في ورطة اعظم وداهية اطم وهي حب لونا حبا ملك عليه
جميع مشاعره وقاده اليها بحبل مفتول من شغاف قلبه وشرائع
جوارحه فصار اتبع لها من الظل واميل من الغصن الرطيب
كلما مرت امامه او نظرت اليه او ابتسمت او سمع صوتها او
تخيلها وهما . وصار لا شغل له في المكتب الا ترصدها وتتبع
خطواتها فكان يعرف ان كانت في بيتها او بيت صديقتها او
في الشارع بحيث يخرج فيصادفها في المحل الذي حزرها فيه .
وكان لا يقدر ان يستغرق في الحديث معها لان الصديقة
تقع في طريقه وهي لا تكاد تفارقها . ثم هو يرى ان الاسترسال
في حبها ومفاتحتها به جناية عليها وطيش وسفاهة من جهة
اخرى ، انما هذا الرأي لم ينفعه ولم يثن عنانه . وهل بقي فيه
مع هذا الحب الجنوني ما يستجيب لداعية عقل او يصيح لوعي
ضمير ؟ ..

ومضت على صاحبنا عدة اسابيع وهو بهذه الحالة البشادة
يتحرق لوعة وغراما على لونا ولا يجد اليها سبيلا . ولاحظت
عليه الصديقة انه انصرف عنها ولاحظ عليها انها استأنست كثيرا

بلونا. وادركت لونا انه يهيم بها حبا فلم تنفر منه ولا انكرت عليه بل بالعكس صارت تعطف عليه وتتلطف به. وأنسه اولا هذا العطف واعتبره مشجعا على التقدم اليها بغرامه ولكن اني له ذلك. وهذه اشباح التهديد والوعيد تلوح له من قريب وبعيد، وتلك صديقتها يخجله ان تظهر عليه وتحسبه محتالا متلاعبا بقلوب النساء. فاول ما تفعل انها تنصح لونا بالحر من وتصوره لها في صورة الاثيم الافاك ١٩..

وباليتة كان حقيقة من اولئك الوصوليين الذين لا يابهون بهذه القيم الاخلاقية او قل بهذه الاوهام السخيفة، اذن كانت لونا الان بين يديه ومتاعا خالصا له من دون الناس، ولم يبق معذبا مفتونا بهذا الغرام الذي وقع عليه من السماء ولم يجد منه سبيلا الى الخلاص!...

كذلك كان صاحبنا يفكر ويقدر ويعزم ويتردد حتى افضى به الحال الى الغلطة الشنيعة التي ارتكبها مع فائنة له ومالكة قلبه في ذلك الصباح حيث مر عليها ولم يسلم وتجاهلها واعرض عنها ثم خرج بعد قليل يبحث عنها ليترضاها ويعتذر لها فلم يجدها.

وقد قضى يومه ذلك في طلبها والتعرض لها في المواطن التي كانت تتردد اليها فلم يعثر لها على اثر وكانها تعمدت ان تحتجب عنه في ذلك اليوم جزاء وفاقا على ما تعمدت من جرح كرامتها..

ولما نُس من رؤيتها عاد الى بيته وهو يعص بنان الندم على ما فعل ويقول يا لي من جاهل احمق! اجني على نفسه ما لا يجنيه العدو على عدوه فلو انني فكرت قليلا لعلمت ان حب لونا قد استقر مني في الاعماق وانه ليس من السهل انتزاعه بهذه السرعة، وعلى الاقل كان يلزمني ان اداريه لا تفادي تعب هذا النهار. فما انا بعد ان كنت اشتكي من تعب الفكر وشغل البال اضيف الى ذلك تعب الجسم وخيبة الامل. ثم يعود ويقول ما لي لا اجعل هذه هي الخاتمة ويكون الله عز وجل قد هيا لي الاسباب لينقذني من هذا العذاب؟

ولكن هيهات! فان هذا الخاطر ما يكاد يرد على نفسه حتى تتمثل صورة لونا امامه وتضرم نار وجده وغرامه فيستغرق في مشاهدتها والتعلي بمحاسنها ويرجع على نفسه باللائمة لانه اغضب ذلك الوجه الجميل ويفكر اين تكون في تلك الساعة؟ وهل بقي بنفسها اثر من صدمة الصباح؟ ويتمنى من صميم قلبه ان تكون احسنت تاويل ذلك السلوك منه والتمست له عذرا كيفما كان.

واخيرا يلجأ الى سلوكه الوحيدة ومعاذه الذي يلوذ به في مثل هذه الازم وهو النوم فيستغرق فيه الى الصباح. ويرى لونا في احوال مختلفة لا يضبط منها شيئا وعند ما يستيقظ يجد نفسه قد اطمأنت قليلا ولم تبق فيما كانت عليه من ثورة ويعجل بالخروج عله يصادفها فيكفر عن زلة الامس ولكنه يخيب امله

فلا يراها وإنما يرى صديقتها ويهم بسؤالها عنها ثم يتراجع ليلا
يكشف الغطاء عن قضيته معها.

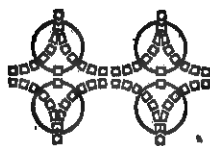
ويظن أن من الخير له كونه لم يرها لتزداد نفسه اطمئنانا
ويزول من نفسها اثر تلك الصدمة فاذا لقيها بعد لم ينكر من علاقتها
معه شيئا. ولذلك لم يلح سحابة ذلك النهار في طلبها وابتغاء
لقيها حتى اذا كان العشي وخرج يتفصح بشاطي البحر يروح
عن نفسه من تعب تلك الايام ويؤمل أن يصادفها هنالك مع
الصديقة اذ اعتادتا أن تكونا في ذلك الوقت تتفصحان على
الشاطي. مع المتفصحين؛ اذا به يراها من بعيد تقطع الشاطي
جئة وذهوبا ولكن لا مع الصديقة كما كان يتوقع بل مع شاب
متأنق من بني جنسها وهما في حالة من الغبطة والسرور لا توصف.
وكذب عينيه اولا وارتاب في أن تكون هي فاقترب
منها ورأها رأى العين وحياتها فحيته ولكن بدون اهتمام ومضت
في سبيلها مع صاحبها وتركت صاحبنا للاحزان والآلام...
صدم صاحبنا في شعوره صدمة عنيفة واحس قلبه يتمزق
قطعا قطعا واظلمت الدنيا في عينيه وود لو يسافر من ساعته
الى اقصى الارض حيث لا يسمع ولا يرى ما يذكره بحبه الفاشل
وانهزامه هذا، ومضى يتحامل على نفسه ثقیل الخطى وثید
الحركات يلتفت فيرى امله المحطم وهواه الضائع متخلفين
وراءه فيسمر في مكانه ويكاد يسقط مغشيا عليه. ثم يمضي
ويلتفت فتغم عيناه وتحول الدموع بينه وبين أن يرى شخص من

أحب مع غيره وتمنعه الكبرياء من البكاء فيمسح عينيه ويتكلف
التجلد. ثم يمضي ويلتفت فتكون قد غابت عنه وصار بحيث
لا يستطيع رؤيتها فيقول في نفسه هكذا ذهبت عني الى الابد
 واصبحت لا طمع لي فيها لاني قبل ان يتفتح قلبها لغيري كنت
امني بهما نفسي وكنت اريد ان اعيش واياها في ظلال هذا
الحب الافلاطوني برهة تعد باجيال ولا تحسب من اوقات هذه
الحياة الدنيا. اما وقد رمت قلبها سهام «كوبيد» واطلعت على
دنيا الغرام وذوقت افويق اللذة وحلاوة الوصال فاني لم يبق
لي فيها حظ ولا نصيب.

الوداع! الوداع! يا فاتنة لبي ومعذبة قلبي، انعمي بالا وقرى
عينا فما اغبطني بان تكوني مسرورة مغتمة ايام شبابك الجميلة...
اما انت يا قلبي المحزون فهذا خنجر اليأس المشحود
اغمده في احشائك واقطع به نياطك ليسكن بلبالك ويهدأ
حفظانك وتستريح الى الابد من عذابك الاليم!

وهكذا طويت صحيفة هذا الحب من حياة صاحب القلب
المنتحر واعانه على نسيانه انه كان يرى لونا تسرع الى الانحدار
في هاوية الاستهتار فيذبل عودها وينصل لونها ولا تعود نملأ
الفراغ الذي كانت تملأه من نفسه. ولكن اني له ان
ينسى تلك الصورة الفاتنة التي ارتسمت في مخيلته اول مرة
فلم تفارقها ابدا؟..

ولذلك فهو يتخذ من اخت لونا مذكرة بها ومخيلة اذ
 كان فيها مشابه منها وملاح، ولولا فرط امتلاء في بدنها وبروز
 قليل في جبينها لكانت هي بعينها لا تفترق عنها بشيء .
 وانما هو لا يستغرق في هذه المشاهدة ولا يبالغ في هذا
 التخيل خشية ان يقع من جديد في ورطة يعسر عليه التخلص منها.



سرقفة فنية

عزمت على الرجوع من مدينتي نطوان الى مدينتي طنجة، لان مهمتي التي استغرقت في هذه المرة اسبوعا كاملا قد انتهت. ولم يبق لي الا ان احزم امتعتي واولي وجهي شطر جوهرة المحيط، وقد كلفت احدي عاملات الفندق الذي اتخذه مركزا فقط. حيث لم تكن بي حاجة ابدا الى فندق انزل فيه في مدينة كل بيوتها الكريمة مثل بيتي.

اقول كلفتها بانزال حقيبتي والكتاب الذي كنت اخلو اليه حين اجد الفرصة للقراءة وهو كتاب ذكرى ابي الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام، فانزلتهما الى اسفل واودعهما عند البواب بينما كنت انا اسدد حساب الفندق واوصي بحمل الحقيبة الى محط شركة السيارات في موعد قيام السيارة التي تتوجه الى طنجة.

ولما حان الموعد توجهت الى المحط للركوب الى طنجة فاذا بصبي الفندق ومعه الحقيبة، فسلمها الى خادم السيارة فوضعها على سطحها مع امثلة بقية المسافرين. وما هو الا قليل حتى تحركت السيارة قاصدة طنجة.

وقد مررنا مسرعين في بسيط الوادي المنخفض ثم سعدنا

متباطئين في ثنية الجبل الشامخ، وبعد ما استوينا على قمته

أخذنا نتحدر شيئاً فشيئاً بين تعاريج الاحدور الذي اسلمنا الى طريق مستقيمة انتهينا منها الى مركز « البرج » على حدود طنجة. وهناك وقفت السيارة ونزل المسافرون وبدياً بانزال المتاع لتمثيل مهزلة الحدود التي تقضي ببحت جواز السفر وفحص المتاع وربما المسافر نفسه بين البلديتين المتجاورتين في التراب الواحد من القطر الواحد! فياليت لنا قليلاً من هذه الوقاحة الادارية لنحمي كثيراً من الحقوق التي يذهب بها الحجل الممقوت! ..

وقفت بازاء السيارة اشهد هذه العملية. فكان العمال يأخذون الحقائق والامتعة الى مفتش الجرك والشرطة يراقبون الحركات والسكنات ولما اخذ احد العمال حقيبتي من على سطح السيارة فتحها وقال للشرطي: هذه فارغة فهل يجب انزالها وفحصها هي الاخرى؟ .. قال الشرطي: لا ولكني قلت كيف تكون فارغة؟ اين ما كان بها من اللباس والاشياء الاخرى؟ وهنا انقلب اشمئزازي من التفتيش حرصا على ان تنزل الحقيبة كاخواتها وتفتش كما يفتش غيرها من حقائب الناس وصرت ارى ان المغبون يومئذ هو الذي « لا درهم له ولا متاع » يفتش!

ونزولا على الحاحي واحتجاجي المتكرر انزلت الحقيبة فاذا بها مفتوحة الاقفال فارغة لاشي فيها ولم يكن لي بد من توجيه التهمة الى خادم السيارة الذي لم يظهر عليه اقل

ارتباك ولم يبال بالأمر وزعم انها كذلك كانت لما اتى بها
صبي الفندق وانه حين ذاوله اياها كانت اخف من الريشة دليل
فراغها وعدم احتوائها على شيء.

وانا وان لم اصدق ما قال، لم يبق لي الا ان آخذ دليل
الاثبات من شرطة المركز بان الحقيقة وجدت فارغة على سطح
السيارة حتى يتأني لي ان اتابع الاجراءات اللازمة بعد الوصول
الى طنجة.

وعدت الى السيارة وكنت افكر في القضية واجيب على
سؤال الفضوليين من ركاب السيارة واسمع تعليقاتهم على
الحادثة وما منهم من احد الا وهو يتعجب من عدم اختباري
لها قبل الركوب ورفعها ولو لمعرفة مقدار ثقلها حتى ليوهمنك
حديثهم انهم دائما يعرفون ما سيقع فيستعدون له قبل ان يقع.
وما ان وصلنا الى طنجة حتى اخذت اتجأ الى مركز
الشرطة فقابلت احد رؤساء الاقسام الذي تعجب من الحكاية
وقال ان هذه سرقة فنية على الطريقة الامريكية ! ولا بد انها
كانت مدبرة بين احد اللصوص وصبي الفندق. وشرع في
كتابة تقرير بالقضية ولائحة بالاشياء التي كانت تحتوي عليها
الحقيبة على حسب ما تلقاه مني.

وهنا ذكرت كتاب ذكرى ابي الطيب الذي لم اكن
جعلته في الحقيقة بل تركته موضوعا فوقها واوصيت عاملة
الفندق بانزله معها، فزاده في اللائحة ! - وبعد ختمها اكد

لي انه سيتخبر مع شرطة تطوان تلفونيا وان اول من اسيوأخذ في القضية هو صبي الفندق وانه ان لم يقر بفعلته وشركائه فلا بد انه سيقضي ليلته تلك في السجن تحت طائلة العقاب . ومن ثم ودعته وانصرفت.

وكانت حوالي الساعة الثامنة مساء حين رجعت الى البيت بحقيبتى الفارغة التي تشبه خفي حنين، فكانت حكاية طريفة من اغرب ما سمعه الاهل والعيال. وكانت موضع حديث وتعليق طويلين. وكانت ربة الدار تتأمل في الحقيبة فتشبهه فيها وتقول انها جديدة، فاقول لها وهل حقيبتى بالية ؟ ثم اقول يجوز انهم ابدلوها بحقيبة جديدة من لونها وشكلها ولكنها فارغة واخذوا «العامرة». فتقول هي وعلى كل حال فقد ربحت حقيبة جديدة! ..

وتمضي في التندر علي بما لم يسمعه حنين لما رجع الى اهله بخفيه الجديدين وضيع الراحلة بما عليها. ...!

ولما كان الغد بينما انا اتهيأ للخروج من المنزل اذا بالبواب يطرق واذا باحد سكان المدينة المعروفين حاملا للحقيبة العامرة وكتاب ذكرى ابي الطيب فقدمها الي وقال اني كنت بتطوان امس نازلا في نفس الفندق، وانى رأيت حقيبتك عند البواب فاعجبتنى واشتريت حقيبة مثلها واودعتها عنده. ولكنك اخذت حقيبتى وتركت حقيبتك. وقد اوصانى صاحب الفندق ان ابلاغك حقيقة الواقع واسلم اليك الحقيبة

وأخذ منك حقيبتني بعد ان تأكد من شخصيتي ووثق بي
كل الوثوق.

وشد ما كانت دهشتي لهذا الاتفاق الغريب وعجبت
كيف ان البواب كان باردا مثلي فلم يميز الحقيبتين ولم
يرفعهما ولو لمعرفة ثقلهما حتى يدرك ان احدهما فارغة
والاخرى غامرة! وشكرت صاحبي وسلمت اليه حقيبتته وانا
لم اقص العجب من هذه الواقعة.

وهنا وجدت ان امامي واجبا هو اعلام الشرطة بالعثور
على الحقيبة الضائعة وحفظ القضية المرفوعة ضد الفندق
وعماله بتطوان فلم اتقاعس عن القيام بهذا الواجب على وجه
السرعة. وخرجت في الحين وقابلت رئيس القسم وابلغته
صورة رجوع الحقيبة، وحقيقة الواقع ورجوته ان يتلافى الامر
بسرعة لئلا يقع محذور لصبي الفندق او غيره من العمال،
فطامنني بان التقرير لا زال لم يرسل وانه لم يتكلم امس
بالتلفون مع شرطة تطوان! وان الدنيا بخير!...



الصورة المعلقة

ترددت في مناسبات مختلفة الى منزل بعضهم ممن له رأي في كل موضوع وتشوف الى المشاركة في كل مشروع بقطع النظر عن صبغته وعدم اعتبار مبدئه وغايته فكنت ارى في صدر البيت صورة احد العاملين في الحقل الوطني محاطة بقطار من التهجيل والتعظيم من رب البيت وكافة اعضا أسرته وغبرت مدة غير قصيرة على هذه الحال ثم رأيت ذات يوم صورة شخص آخر معلقة في مقابلة الصورة الاولى من البيت نفسه وهذا الشخص هو ممن يمتون الى الوطنية بسبب وبينه وبين رجالها وشائج نسب هذا غاية ما يمكن ان يقال فيه وان كان هو لا يرضيه هذا الوصف المتواضع ابدا فلما رايت تلك الصورة الثانية قلت زيادة خير وعسى ان يكون ذلك من باب التقدير المجرد لجهود العاملين.

فلما كان بعد حين قليل رايت ان الصورتين معا قد انزلتا من مكانهما ولم يبق لهما اثر في البيت وتبوات صورة اخرى لزعيم محبوب محلها فلم افرح بظهور هذه الصورة الثالثة الفرح الذي كنت استطيع ان افرحه لولا هذه السوابق لتوقعي ان تنزل هذه الصورة في يوم ما من مكانها كما انزلت سابقتها.

اعرف ان بعض من لا خلاق لهم يسلكون هذا السبيل
في التقرب والزلفى ممن تكون بيدهم مقاليد الامور فهم
اعوان من والته دولته واعوان عليه اذا عادته كما يقول الشاعر
الحكيم ولكن الغريب هو ان يوالي الشخص ويعادي في مدة
سنتين او ثلاث رجالا من ذوي الكفاءات والاعمال النافعة
ويعلن ذلك بصورة واضحة فيتلقى منه هذا الدرس المزدول في
التقلب والاضطراب ابناؤه واهل بيته جميعا ثم هو لا يرجو منه
ولا يخاف، اننا بحاجة شديدة الى التربية الوطنية وبحاجة
اشد الى الثبات على المبدأ، فان التقلب والتلون والتردد في
المبادئ لا نتيجة له الا الانسلاخ من القومية والتحلل من
العقيدة والرسوخ في رذيلة النفاق.

ما احق الرجل بالثبات على مبداه وعدم التحول عن فكرته
ولو كان مخطئا لان ثباته نصف الصواب ولان يكون معه نصف
الصواب خير من ان يكون فاقد الصواب مطلقا.

واني لاحترم الرجل واقدره وهو على غير رأبي وخصم
لي في فكري لاعتصامه برأيه وتمسكه بنظره ولا احترام
المتردد المتلون الذي يكون مع كل امة بدين ولو وافقني
في الرأي وجاراني في النظر وايدني في فكري، لاني اعلم ان
موافقته الي خلاف ومجاراته الي تخلف وتاييده الي خذلان.
لو كان اتباع الرسل والانبياء من هؤلاء المتتردين المتقلبين
لما اديت رسالة ولا دين الله عز وجل بدين. ولو لم يظفر

الحكماء والفلاسفة بتلاميذهم مخلصين لما تقررت حكمة ولا عرفت
فلسفة بل ان جميع الدعوات الاصلاحية والمذاهب الاجتماعية لو
لم يقيض لها المومنون الصادقون لما كتب لها ان تنتشر وينال
الناس بفضلها خيرا كثيرا. فحيا الله العاملين الثابتين ولا
كان هؤلاء المنافقون المارقون



تحقيق مع صاحب الذيل والتعليق

لم أرحب بالبحث الذي نشر في العلم حول كتابي «امراؤنا الشعراء» بقدر ما رحبت بظهوره في هذه الجريدة؛ لانه مهد لي السبيل للكتابة فيها في مواضيع الادب والنقد التي كنت اتحاشى بها عنها لما ارى من اهتمامها بالاخبار والمباحث السياسية، فكلما هممت بنشر شيء من ذلك اقول في نفسي كيف والقوم مشغولون بما هو اهم؟ فالآن حيث فتحت لنا المجال لم يبق علينا من حرج في تناول هذه الموضوعات برغم انف السياسة والاخبار!

واما قبل فإني اشكر صديقنا الاستاذ عبد الرحمن الفاسي على عنايته هذه بكتابي «امراؤنا الشعراء» وتناوله إياه بالنقد من بين سائر الكتب التي خرجت في عامه حتى الذي صدر منها في الرباط مقره ومقر مؤلفيه. وما ذلك الا لمزيد الحفاوة والتقدير فإن الكتاب الذي يقتنى ويقرأ من اوله الى آخره يعد ناجحاً حقاً، ثم اذا بيعت قارئه على التفكير في شأنه والكتابة حوله فان نجاحه يكون عظيماً، ونعوذ بالله من كتاب لا يقتنى فاذا اقتنى لم يقرأ فاذا قرئ لم يقرأ كله فاذا قرئ كله لم يبعث في نفس قارئه شعوراً بالاستحسان ولا بالاستهجان ولا يلبث بعد ما يلقيه من يده ان ينساه ولا يعود يخطر له

يبال... هذا النوع من الكتب محكوم عليه بالاعدام من يوم
ظهوره على حد ما قال الشاعر فيما هو من هذا الواد:
يموت ردي الشعر من قبل اهله

وجيده يبقى وان مات قائله
وكتاب «امراؤنا الشعراء» ليس من هذا القبيل بدليل ما
صرف اليه صديقنا الفاسي من وقت نفيس وجهد طائل،
فالحمد لله على ذلك!

ثم اني رايت الناقد قسم كلامه الى قسمين، تناول اولا
الكتاب بصفة عمومية فادلى ببعض الآراء والافكار في منهاج
الكتاب وطريقة تأليفه واسلوب العرض لشخصياته، وتبع ثانيا
فيه بعض المواضع التي كانت حرة في نظره بالتبع والتعليق.
وحيث انه في الاول كان يطبق اراء شخصية لا قواعد
نقد مسامة، وفي الثاني انما جرى بحكم تلك الآراء حين توهمها
صحيحة لا نزاع فيها - فاني احببت ان اعقب على كلامه
ببيان ما فيه من الخطأ او التوهم لان الجريدة عمومية تقع في
يد من يحقق ذلك ومن يقبله على غره ولا يميز لبابه من
قشره وسأبغ تقسيمه فاتناول العموميات ثم اعود الى الجزئيات:
واول ذلك طريقة عرض هذه الشخصيات من امرائنا
الشعراء وسياسة اشعارهم، العارية عن تحليل نفوسهم وتمثيل
عواطفهم! وابراز سرائرهم! وتشخص احساساتهم وتحديد
مذاهبهم ومناقشة آرائهم في الادب والحياة وربما في الفلسفة!

الى آخر هذه الكلمات الطائفة الفارعة، والعارضة هي اي ذلك الطريقة ايضا عن تناول هذه الاشعار بالبحث والمقارنة والنقد والدراسة حتى يتجلى ما فيها من جمال اخاذ واسلوب بارع وخيال مبدع ومعان سامية الى آخر القائمة اللفظية المعلومة؟ ويعبر الناقد عن ذلك بالعبارات الآتية: ولعل في حياة السادة امراء الدولة الموحدية ما يهدي الباحث الى مكامن اسرار هذه الشعاعية، واخلاق بحياة اصطلاح على ثاليف عناصرها الادب والغرام والفروسية والمدمام ان تكون حرية بالدرس والتحليل في هذا المقام.

والاحظ بادىء بد هذا الوثوب من امراء ما قبل الدولة الموحدية اليها وهذا التخصيص بهم كأف الكاتب مقتنع في سريره بان حياة امراء غير هذه الدولة ليس فيها ما يهدي الى اسرار الشعاعية... ثم اني اقول حقا ان هذه طريقة... وهي طريقة مثلى في دراسة الاثار الادبية الممتازة اذا توفرت بين يدي الباحث ودراسة حياة اصحابها اذا وجد مواد تلك الدراسة من مصادر تتحدث عن نشأتهم ونبوغهم واعمالهم وغير ذلك مما يمكن ان يتخذة دليلا في فهم منشئاتهم الادبية وانتاجهم الفكري وقد اتبعها كثير من كتاب الشرق العربي الحديث في البحوث القيمة التي وضعوها عن ادباء العربية الكبار كأبي العلا والمتنبي وابن الرومي وابن زيدون وامثالهم، وهي مع ذلك لم تخلص لهم تمام الخلوص ولم يمكن لهم ان يطبقوها

بحيث تعطي الصورة الكاملة للاديب المدروس لها ان كثيرا من دوائر حياة ادبائنا ودقائق اخبارهم فضلا عن تواريخ اعمالهم الادبية غير معروفة لنا، وبعكس ذلك ادباء الغرب المحدثون الذي يطلع على الناس كل حين تراجم مستوفاة لهم بسبب عنايتهم بتسجيل هذه التفاصيل عن أنفسهم او تسجيل الغير لها فيمكن لمؤرخهم تطبيق تلك الطريقة عليهم بكل سهولة ولا سيما مع توافر آثارهم الادبية وكثرتها وتنوعها واذا قلنا ان هذه طريقة ممتازة من طرق التأليف الادبي فليس معناه ان غيرها من الطرق ليس له مزية ولا يصلح اصلا ؛ فواجب على كل مؤلف أن يسلك تلك الطريقة فحسب وإلا كان مستحقا للوم والنقد ، فما ذنب طريقة العرض الخفيف والتعليق العابر حتى تتركها ولا نصطنعها في كتابتنا وتاليفنا وهي طريقة أدبائنا الكبار ومؤلفي العربية الاولين ؟ وهل كل الناس يستسيغون تلك الاساليب المعقدة في الدرس والتحليل والبحث والاستنتاج أو لهم عقول تربط النتائج بالمقدمات والاسباب بالمسببات ؟ وهل تعميم الثقافة الادبية وتلقيش الناس مواضع العبرة والفخار من تاريخهم القومي يقتضي ذلك اللف والدوران واللي والتمطيط ؟

وبعد هذا اذا اخترت انا اتباع الطريقة السمحة السهلة واختار الناقد الطريقة الاخرى فهل يكون لزاما علي الاخذ باختياره وقد كنت - مع الاسف - ساعة كتابتي لتلك الرسالة

أجل منه ذلك الاحتار ؟ وسعر الأجر القاسي بخطاه في النهاية
وعدم أصابته في هذا الباعث فقال « على أننا لا نفرض على
الاستاذ أن يكون اتجاها بعينه ولا نحمله على سلوك سبيل أثر
سواها ، فسقط الحمل وبطل الغرض ! ...

ومع هذا وذاك فإن محل اتباع تلك الطريقة إذا كانت
الآثار الأدبية المدروسة متوافرة وكثيرة ومراجع حياة الشاعر
أو الكاتب بمتناول اليد وعلى طرف الثمام ، فكيف ونحن
ندرس الشعراء الأمراء والمفروض فيهم أن الشعر هو آخر
ادواتهم ونافلة كمالاتهم . وأن من نبغ من صنفهم في الشعر بين
ملوك العرب كلهم أفراد قلائل ، فاما في المغرب خاصة فانما روى
البيت والبيتان والقطعة والقطعتان لهذا الملك أو ذاك الأمير ولم
يتوفر على الشعر ويكثر منه من أمراء المغرب الا فرد أو
فردان ، ولا بد أن نقيد هذه الكثرة بانها نسبية لا مطلقة ونشير
الى أن طبقة ذلك الشعر ونسبة بعضه فيهما مقال ، فعلى ماذا
يعتمد مدير دراسة شعر الأمراء المغاربة دراسة أدبية وافية تظهر
شاعريتهم وتطلع القارئ على ما فيها من أسرار الجمال ومواطن
الابداع التي يشترك في تكوينها الأدب والحب والفروسية والحر ؟
هل يضرب في اودية الخيال ويهيم في عالم الاخلام ويأتي
بالمفروض المحتملة وغيرها والتقدير الممكنة وخلافها ليقدم
صور هذه الشاعرية المزعومة ويجلي ما لها من أسرار معدومة ؟
اما اذا فقد قرأت كثيرا من هذا الهديان لبعض الناس

وكنيت ابتسم ابتسامه الهز والسخرية من افعالهم في التقليد
واقامتهم الدنيا واقاعدها من اجل بيت او بيتين او قطعة شعر
قالها اديب مغربي ، فيذهبون يخللون ويشرحون ويتعرفون
الى نفسية هذا الشاعر واخلاقه وروحه الادبية وعصره - زعموا -
من خلال تلك الابيات ، كما يفعل النقاد حينما يتناولون ادبيا
كثيرا له دواوين شعرية ومذهب في الشعر معروف ورسالة
ادبية سامية . ثم لا يقتصر اصحابنا على هذا بل يذهبون الى
العتب على من لم ينصف هذا الاديب ويكبره ويجعله في مصاف
شعراء العرب المعدودين

أقول اما انا فقد قرأت كثيرا من هذا الهذيان وكنيت
أبتسم ابتسامه الهز والسخرية من اصحابه فيا اخي لا تنتظر
مني هذا التعمق فاني افضل السطحية في هذا الباب (وما انا
من المتكلفين)

ولا تظن هذا رأيا جديدا لي فقد كنت قدمت منذ ستين
لبعض الابحاث الموفقة عن اديب مغربي معروف وكان صاحب
ذلك البحث يميل احيانا الى المبالغة في تقدير اثر ذلك الاديب
فلم أجد ما أخذه عليه الا هذا الامر ، ونبهته اليه بلطف قناثلا
إنني ارجو منه في ابحاثه المستقبلية الا يغلو في الحكم والتقدير
والا يجعل لغواطفه واندفاعاته القومية على عقله سبيلا او كلاما
نحو هذا

ونكتفي بما ذكرنا في هذا الموضوع وننظر في مسألة أخرى أثارها حضرة الناقد وهي مسألة ذكر المصادر؟ مصادر البحث التي ادعى ان الكتاب خال منها، ولهجة الغاضب المنق التي تكلم بها في هذا الموضوع تدل على ان هناك حاجة في نفس يعقوب! ونحن نقول له مهلا ايها العزيز! فذكر المصادر واجب وحق وهو مما تواصى به الاحفاد والاجداد (اذا قلت بكلام خبري ان كنت ناقلًا فالصحة او مدعيًا فالدليل) ولكنه ليس قاصرا على الكيفيتين اللتين ذكرت بل انه -يؤدي باساليب عدة:

فالباحث الغربيون هم اول من استعمل ذكر مصادر البحث في ذيول الصفحات وتبعهم في ذلك بعض الباحث من العرب المحدثين، فهي طريقة غريبة جديدة وتحمل في اثنائها دليل جدتها لانها لا تنسجم الا مع الطباعة التي هي صناعة حديثة ايضا لاستلزامها ذكر ارقام الصفحات من الكتب المنقول عنها ونوع الطبع وزمانه ومكانه ورقم الكتاب في الخزنة الموجود بها ان كان نادرا او غير ذلك. وهي وان كانت لها منافعها الجمة فان لها مساوي بقدر تلك المنافع، ومما نذكره من مساوئها ان اصحابها اكثر ما يستعملونها في المسائل التافهة والنصوص المعروفة واختلاف الفاظ النسخ وما الى ذلك

فالقاري العادي حينما يرى ذبول الصفحات مملوءة بالأرقام
والاحالات يقول ان هذا الكتاب محقق ومنشور نشر علميا
صحيحا ولو قدر له ان يطلع على دخائله لوجد فيه من التجاوز
والاهمال - المقصود وغير المقصود - شيئا كثيرا بحيث يصير
الى الاعتقاد ان ذكر هذه المصادر انما هو للتعمية وتغطية
القصور، ولو اردنا ان نشير الى الكتب التي من هذا القبيل
والتي نشرها البحاث الغربيون والشرقيون والمغاربة ايضا لطل
بنا الكلام ولخرجنا عن الموضوع .

وهناك اسلوب الاسلاف الكرام قدس الله ارواحهم في دار
السلام وهو ذكر المصادر في صلب الصفحات الا انهم يختلفون
في طريقة اداء ذلك، فمنهم من يشير اشارة خفيفة الى المصدر
بان يقول ذكره فلان مثلا، ومنهم من ينقل النص بلفظه ويدل
على ابتدائه وانتهائه، ومنهم من يحيل عليه في مكانه الى غير
ذلك من الطرق ونحن نستعمل هذا الاسلوب بغير تقيد بطريقة
منه، فحين نرى وجوب التنصيص وذكر النقل بلفظه نستعمله،
وحيث نرى ان الاشارة تكفي نستعمل الاشارة، ولا بد ان
القاري الاديب يدرك سر ذلك ويستحسن موقعه من الكلام ولا
سيما في الكتابة الادبية التي ينبغي ان يساير الاسلوب فيها
الموضوع في التفنن والابداع ومن محاسن هذه الطريقة انها
لا تشوش على القاري ولا تقطع عليه خيط الربط بين الافكار

المتابعة بسبب ترده نظره بين الأصل والتعليق كما في
الطريقة الاولى.

وهناك طريقة اخرى وهي ذكر مصادر البحث في اول
الكتاب او آخره وهي مستعملة قديما عند مؤلفي العرب كما
انها مستعملة عند كتاب الغرب اليوم والغرض الذي هو التوثق
مما في الكتاب حاجل بها ولا ريب، وفيها فائدة زائدة وهي
حماية جهود المؤلفين من الاهتدام وادعاء الغير لها من غير خجل
ولا استحياء ولا سيما حين تكون تلك الجهود معرضة للسطو
ولا حامي لها من قانون او خلق كما هو واقع الان في البلاد
العربية كلها. فعلى اي حال ان استخراج مكنونات تلك الكتب
- وان وقع تعيينها يحتاج الى مشقة وتعب في تحصيلها ثم
مراجعتها ولا كذلك الطريقة التي تعين مكان النص من الكتاب
وطبعة هذا الكتاب ومكان وجوده ان كان نادرا فانها تسهل
على الكسالى ومريدي الانتفاع من خدمات غيرهم ما لولاها
لما وصلوا الى مرادهم الا بجهد وكدح واذا علمنا ان كثيرا من
هؤلاء الانتفاعيين لا يفضلون ولو بالاشارة الخاطفة الى ذكر
من سهلوا لهم طريق العمل وجدنا انفسنا منساقين الى اعطاء
النصفه لهؤلاء الضحايا المظلومين من الكتاب الذين يلجؤون الى
هذه الطريقة.

ونحن كما قلنا نستعمل الطريقة الثانية وهي ظاهرة في
كتاب «امراؤنا الشعراء» وكتاب «النبوغ» وزدنا في هذا الثاني

ذكر المصادر مجملة في آخره ومع ذلك لم يكتف الناقد بهذا وقال اننا لا نذكر المصادر في كتبنا فان اراد ان نذكرها له بالكيفية التي يفضلها هو فسنروي في الامر ونجيبه كما قال ابن خلكان !

وتعجب الاستاذ من كوننا ننقل عن المغرب والتاج ابن حمويه مباشرة بدون وساطة المقرئ هنا وفي النبوغ ونقول له اما هنا فإننا ما نقلنا الا قولا مشهورا وتعليقا معروفا لادباء المغرب مع نسبته لصاحبه وقد نقلناه هو وغيره في النبوغ وفي آخره ذكرنا مصادره كلها ومن جملة ما نفح الطيب للمقرئ ولم نذكر طبعا لا رحلة ابن حمويه ولا كتاب المغرب ومعنى ذلك في المنطق السليم ان ما نقلناه عن هذين المؤلفين وغيرهما مما لم نذكره في المصادر الاصلية للكتاب كله بواسطة هذه المصادر .

حقا اني لم اكن اعرف لماذا يضع الناس الشروح المطولة والحواشي والتقارير والآن فهمت !

وتعلق صاحب الذيل والتعليق بناشئة الادب فقال ان هذا العمل فيه تضليل لهم والحقيقة انه ان كان هناك تضليل فانما هو لشيوخ الادب لا لناشئته لان اولئك هم الذين يشكون لا هؤلاء وللمناسبة فقط اذكر انني في بعض الآثار الادبية التي اثبتتها في النبوغ سهوت حقا ان اذكر مصادرها وهي مصادر غريبة لا تمت للادب وتاريخه بصلة والى الآن اري جمر

هؤلاء الشيوخ تقف في عقباتها ولا تتجاوزها.

ومما اعجبني من كلام الناقد انه حين ذكر المغرب
ورحلة التاج ابن حمويه قال انهما لا يوجدان في خزائن
المغرب ولا في مكتبة الاسكوريال وانا افهم ما يريد فلذلك
اقول له ان هناك غير خزائن المغرب ومكتبة الاسكوريال
ولم يا اخي تحصر مجالي في هاذين المكانين فقط وقد يكون
في مصر والشام ولندن وباريس من يمدني بما في خزائنها ولا
تدرى؟ ومالك تذكر الاسكوريال وتنسى مدريد وفيها ما
ليس في الاسكوريال لو عرفت؟ والمغرب؟ الا تعرف ان فيه
كتبا مهمة في التاريخ المغربي لا يزال الناس يظنون انها
مفقودة مطلقا؟ ولذلك فاني لا ادعي استيعاب كل ما في
المغرب فاحري ما في غيره وان تفضلت علي بهذا التقدير
العظيم لتحصرني في ذلك المجال الضيق!

واخيرا ان كان صديقنا الفاسي يقول ان النبوغ خال
من المصادر فان صاحب المصدر العظيم للاداب العربية جملة
والناقد البصير بهذه الشؤون وهو العلامة بروكلمان يقول انه
استفاد من ذلك الكتاب واسف لما فاتته منه في اجزاء كتابه
المطبوعة وانه يوصي زملاءه من المستشرقين بالاستفادة منه.

وننتقل إلى مأخذ آخر شاء الناقد ان يفرض وجوده
ليبنى عليه العلالى والقصور والا فهو لو لم يفعل ذلك غير قادر
على إلصاق هذه التهم بالكتاب من عدم ذكر أفراد كان يجب
ان يذكرها فيه واغفال اشعار اخرى لبعض من ذكر لهم فيه
اشعار وغير ذلك من التمحلات وهذا المأخذ هو ما دعاه بالاحاطة
والشمول ، ويعني ان الكتاب لم يحط بجميع امراء المغرب
الشعراء ولم يسجل جميع اشعار من ذكر فيه

وقبل ان ناخذ في تفاصيل هذا القول نتساءل من اين
أتى به ومن الذي اوحاه اليه ؟ ان كان كتاب امراءنا الشعراء
فهو خال من هذه الدعوى بريء منها براءة الذئب من دم ابن
يعقوب حتى ان هذين اللفظين «الاحاطة والشمول» لا يوجدان
به ولا يمكن ان ينسبا اليه اصلا وان كان افتراضا
افترضه وسلمنا اتخذه للاشراف على الكتاب من عل حتى يمكنه
ان يقول فيه كيت وكيت فالحكم للقراء المنصفين على هذه
الاساليب (المستقيمة) من النقد والطرق (الحكيمة) في البحث
والذي اثارك به يا استاذ ، ان هذين اللفظين وهما
الاحاطة والشمول لم يخطرا ببالي منذ مدة طويلة جداً ، منذ عهد
الازهري والمكودى ، وبعد ذلك لم يبق لهما صدى في ذهني
حتى ذكرتني بهما الآن . ومعنى هذا اني بعد ان نسيتهما على

الأقل صرت أن كلامي بميزان الحقيقة وأكره المبالغات جل
الكراهة ولم أعد أرى الإحاطة والشمول يتوفران في عمل من
الأعمال وخاصة تأليف الكتب ولا سيما في المواضيع العمومية
كالأدب ؛ ذلك النبع الفياض الذي يتفجر من قلب الإنسانية
العميق الغور العظيم السعة فكيف إذن تمكن الإحاطة والشمول
في موضوع جل مصادر مفقودة والموجود منها متفرق هنا وهناك؟
وهل تعتقد أنك بذيلك وتعليقك قد أحطت بالموضوع بعدما جمع
منه الكتاب وعلى طريقك لجميع الأبواب وقناعاتك بما فضل
عنه في الحساب ؟.

أما الرؤساء العزفيون الذين هولت بأمرهم واستعظمت
عدم ذكرهم فإني أتعجب منك في رأيك هذا كما تتعجب مني
في اغفالهم «وإنا أو أياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين»
وبيان هذا الاختلاف للقاري المستقل برأيه ليستطيع أن
يحكم في القضية بنفسه أن الفقيه أبا القاسم العزفي، وببنته
من بيوت العلم والدين والرياسة في سبتة. كان قد استقل
بهذه المدينة في أواخر أيام الموحدين لما ضعفت دولتهم
واضطرب أمرهم ثم لما تمكنت الدولة المرينية من ملك المغرب
استتبعته فحكم سبتة هو وولده بالتبع لها ثم انتهى أمرهم بالعزل
والدخول في غمار الناس،

فهؤلاء الولاة، ولاة سبتة، هم الذين يريد الناقد أن
يعتبرهم من أمراء المغرب ويفرض علينا أن نعتبرهم

كذلك او نذكر الادباء منهم في كتاب امراؤنا الشعراء ونحن قد ذكرنا في النبوغ ما رضىناه من آثارهم الادبية شعراً وشرأ وترجمنا فيه لنا بغتهم الفذ ابى العباس بن ابى طالب ثم نشرنا له في مجلة السلام ترجمة موسعة كان لها صدى ادبى في الشرق العربي مما دعا الى معارضة قصيدته البائية هناك من احد امراء الشرق الكبار كما سننوه بذلك في فرصة اخرى . . وكان هذا كله قبل وقوفنا على مخطوطة الاحاطة أو مختصرها وفيها تراجم اخرى لادباء هذا البيت المجيد وقصائد ومقطوعات شعرية فانتبنا في النبوغ ولكننا لم نفكر قط في ذكرها ضمن مجموعة امراؤنا الشعراء . لان اعتبار العزفيين امراء للمغرب وحشدهم في عداد الدول التي تداولت حكم المغرب وذكر اشعارهم في كتاب امراؤنا الشعراء على هذا الاساس غير ممكن عندنا ولا مسوغ له في نظرنا لا من جهة الواقع ولا من جهة الاستكثار الذي يحرص عليه الناقد ويتذرع اليه بذريعة الاحاطة والشمول . فالواقع ان هؤلاء العزفيين لم يكونوا في وقت من الاوقات امراء للمغرب ولم ينظر اليهم احد هذه النظرة قط فابن القاضي يذكرهم في جملة الفقهاء وان وصف بعضهم بالامارة عرضا وابن الخطيب تارة وتارة ومؤرخو المغرب يذكرونهم في جملة الولاة البارزين والجميع يصفهم بالرياسة ويذكرون حسن امرتهم وعدل سلطانهم وهم يعرفون ان من قام به وصف اشتق له منه اسم . ومع ذلك لا

يسمونهم بالامراء والسلاطين كما ادعى الناقد فهو في عهده
ونسأله هل وصفهم احد بالملوك فهذا الذي بقى من الالقاب
الملكية لم يخلعه عليهم !..

ومع فرض انهم ملوك لا امراء فقط فالناقد يعرف انهم
كانوا ملوكا لمدينة من مدن المغرب وفي اكثر الوقت
بالتبعية لا بالاستقلال، والكتاب موضوع لشعراء الملوك والامراء
من الدول التي تعاقبت على المغرب كما في اوله ولو انخرم
هذا بذكر من لم تكن هذه صفته لجاز ان يقال ما بال
الرؤساء العزفيين لم يذكروا كيف ونحن لما ذكرنا الامير
ابا بكر بن تفلويت في الدولة اللمتونية احتجنا ان نوجه
ذلك بكونه صهرهم ومن قبيلهم.

ومعلوم ان المغرب لم يبل بعهد من عهود ملوك الطوائف
حتى نعتبر رؤساء سبتة او غيرها ملوكا او امراء فيه بل انه
كان دائما وابدا - في غير اوقات الفتنة طبعاً - وحدة لا تتجزأ
وكان عرشه الرفيع يحتله ملك او خليفة او امير هو رمز تلك
الوحدة، ولم يزل كذلك حتى بعد ان قسمته سياسة الاستعمار
الغاشمة وجعلته مناطق ثلاثاً؛ فهو كله يدين لملك واحد وليس
هنا او هناك الا من يعمل باسمه ويحكم بامره ... ولكن
الناقد يحب ان نمزق اشلاء هذه الوحدة ونزيد في عداد دول
المغرب دولة لنستكثر من الشعراء الامراء او ليصح نظره في
عدم احاطة الكتاب وشموله !..

وإذا كان الناقد يحرض هذا الحرص على ادخال العزفيين
في امراء المغرب فليت شعري ما عدا به عن الدلائيين
واستدراكهم علينا وهم احق بذلك من العزفيين لانهم اشتركوا
معهم في قول الشعر واتسام كثير من فضلائهم بسمه الادب
وزادوا عليهم بانهم ملكوا فاس ومكناس وناحية الغرب الى
تادلا وحاربوا سلطان السعديين وهزموه واقتحموا سجلماصة
وبقيت لهم السيادة على اماكن فيها حتى بعد ان خرجوا منها
صلحا، وعلى كل حال فقد اطبقت كلمة العلماء والمؤرخين
على مدحهم والتنويه بدولتهم وناهيك برائية الامام اليوسي في
البكاء عليهم لما اوقع بهم مولاي رشيد!..

فلماذا اسقط الناقد ادبائهم من الحساب ولم يستدركهم
على الكتاب؟ واين احاطته وشموله للذات تورك عليهما
ليأخذنا بعدم ذكر العزفيين؟ وهل كان العزفيون وهم ولاة
مدينة اولي بالامارة والملك من الدلائيين وهم ولاة اقليم فيه
عاصمة البلاد؟.. واين ذهب به عن الفقيه ابي حفص عمر
الوقاش وقد استقل بتطوان وهي قريبة من سبتة وقال الشعر
وادعى الخلافة؟.. أليس هذا اخلاا بشرط الاحاطة والشمول
يتوجه على الناقد ويصح فيه ما قالته العرب: (رمتني بدائها
وانسلت)؟..

لكني انا لا اعتبر العزفيين ولا الدلائيين فاحري الوقاش
من اصحاب الدول التي حكمت العرب واستدف لها ملكه

حتى يكون شعراؤهم من الدين يشملهم الكتاب ويدخلون
 في موضوعه فلذلك لم اذكرهم فيه ولم اتجمل بهذا الاستكثار
 الذي يقصد اليه الناقد لان لي خطة درجت عليها ونظرا عملت
 بمقتضاه فلا ملوك الا الملوك المعروفون ولا امراء الا امراء
 الدول الشرعية والقصد قطع لسان الخصم الذي ينكر على هذا
 الوطن كل فضل ومزية ادبية، فهذا دليل من نوع آخر يثبت
 رسوخ قدمه في الشعر والبلاغة وهو مجموع من شعر الملوك
 والامراء الرسميين متخير منخول لا تزيد فيه ولا تعمل ولو
 كان المراد الملء والاستكثار لما اقتصر الكلام على العزفيين
 فقط بل لذكر الدلائيون بالاولى والاخرى ولذكر كل رئيس
 وحاكم ووزير قال شعرا وانتج ادبا وهم في المغرب كثير.



الى هنا انتهى القول في القسم الاول من انتقادات
الاستاذ عبد الرحمن الفاسي، وقبل نظرنا في القسم الثاني منها
نشير الى ان هذا القسم في غالبه انما هو امتداد لفكرة
الاحاطة والشمول التي الصقها الناقد بالكتاب إصافاً وهو
بريء منها.

وانظر اليه كيف يبتدي هذا القسم: «عقد مؤلف امراؤنا
الشعراء الفصل الاول لانتاج امراء الدولة الادريسية. ويبدو
المؤلف في هذا الفصل حريصا على ان لا يغفل من منشور
ومنظوم المولى ادريس قليلا ولا كثيرا، وهذا تقول منه
وتمحل ليتوصل الى غرضه من الذيل والتعليق، فما بنا من
حرص على عدم اغفال شيء من منظوم الامام ادريس ومنشوره
ولا منظوم ومنشور غيره من الامراء الذين ذكرناهم في الكتاب.
والقاري الاديب الذي يمكنه ان يتتبع فصول الكتاب وآثار
الامراء المذكورين فيه يجد اننا كثيرا ما نعبر في ذلك بقولنا
(ومن شعره، ومن نثره، ومن قوله، وله) ويجد ظاهرا بينا اننا
نجتزي في بعض الآثار النثرية بجمل منها وعبارات منتخبة كما
فعلنا في رسالة المامون الموحدي ورسالة الامير محمد العالم
العلوي، ويجد واضحا جليا اننا نطرح بعض الآثار الادبية لبعض
الامراء ونذكر المختار منها فقط كما فعلنا في انتاج المنصور الذهبي»

وهكذا كان حرصنا دائما لا على الجمع والاحاطة بل على الاختيار والانتقاء وعرض اجل الآثار الادبية التي لهؤلاء الامراء. وقد كنا اثبتنا في الكراسة الاولى لدى تدويننا لهذه المجموعة ابياقا ومقطعات كثيرة كان نصيبها بعد ان بيضنا الكتاب الطرح والاهمال لعدم استجدتنا لها والى الآن لا يزال في نفسنا شيء من بعض الابيات التي اثبتت فيه. فهذا الذي لم يشأ الناقد ان يفهمه ولم يرد الا ان يجعلنا نريد الاستيعاب واننا مع ذلك لم نستوعب!..

الا فليفهم، وان كان القاري قد فهم، ان مقصودنا هو اطلاع الناس على ناحية خصبة من الادب المغربي وازالة الغشاوة عن بعض الاعين التي تنكر على المغرب والمغاربة ان يكون لهم قدم في الشعر والبلاغة، وذلك انما يكون بجودة المعروض وتنخله واختياره لا بكثرة وتفاوته.. فالشعر الذي يحتاج الى الاعتذار عنه وكتابة كلمة (كذا) بازائه (1) لا محل له في هذه المجموعة.. والشعر الذي تضطرب بعض ابياته ويحتوي على عيب فني كذلك نصيبه الاقصاء والابعاد، لاننا لا نفاخر الناس بالعيوب وما يعتذر عنه، وعليه فاننا في قطعة مولانا ادريس التي اولها: لو مد صبري بصبر الناس كلهم.. اقتصرنا على اربعة ابيات وكذلك فعل بعض المؤلفين غيرنا

(1) كما فعل الناقد في بعض ما استدركه علينا.

ولم نر والبيتين الباقيين لما في روايتهما من اختلاف اللفظ
ثم لتكرر لفظ الهم فيها مع وقوعه في البيت الثاني والرابع
وتشابه معناهما مع معنى الابيات الاربعة في الجملة ثم لعيب
الايطاء الواقع بين جزعى في البيت الاول ودائم الجزع في
البيت الرابع في رواية الزيادة كما اورده الناقد نفسه - فاسلم
الروايات هي التي ذكرنا.

واما التصرف في القطعة بالتقديم والتاخير كما فعل الناقد
لينسجم المعنى او ابدال لفظ الجزع وهي الواقعة في رواية
الزيادة بالهلع لتجنب العيب كما يجب ان نفعل لئلا نقدم في
باب الافتخار اثرا معيبا - فهذا امر لا تحتمله الامانة العلمية
باطلاق وقد انكر الناقد ما قلناه من عدم الانسجام في الابيات
بالزيادة ثم سلمه ضمنا اذراح يتصرف فيها بالتقديم والتاخير
ليتم هذا الانسجام! وبعد ذلك رجع يقول ان الانسجام واقع
بدون هذا التصرف:

وضاع العلم بين اري وعندي فيا الله من هاذي الدعاوي
ومن هذا القبيل ملاحظة الناقد علينا عدم التنبيه على ان
الابيات الثلاثة (اليس ابونا هاشم) التي انشدها المولى ادريس
ليست له كما فعلنا في بيتي (لا ابيات) ابي الشيص الخزاعي
اللذين نسبا الى المهدي بن تومرت غلطا. ونحن نكرر له ان
هذا المجموع ليس كتابا لتصحيح اغلاط الناس والتعليق على

كتب الآخرين وإنما هو باق من الزهور يراعي فيها الاستحجام
وتناسق الألوان لتقدم الى الراغبين والمتشوقين ، اما بيتا ابي
الشيخ فانما نبهنا عليهما لكوننا وقعنا في الغلط الذي وقع فيه
الغير فنسبناهما في النبوغ الى المهدي ولما واقتنا الفرصة
لنصح غلطنا نحن اهتبلناها ولو قدر فأعيد طبع النبوغ منقحا
لاختفى البيتان والتنبيه معا من هذه المجموعة .

وتعرض الناقد لذكر ابراهيم بن ادريس المعروف بالمؤبل
في المجموعة للشك في مغربيته ولم يكفه قول المؤرخين ان
(اصله من المغرب) وانه انما (سكن قرطبة) فقط الى غاية
معينة وهي تفسير اي نفى ابن ابي عامر له من الاندلس (فيمن
سيره من اهل بيته بعد قتل الحسن بن كنون كبيرهم) فهو لاهل
بيت واحد وهم الاشراف الادارسة الذين نقلوا مع (كبيرهم)
الحسن بن كنون الى الاندلس وقد نص على هذا الفرد منهم
بالخصوص ان اصله من المغرب ولكن الناقد مع ذلك لا يسلم
انه مغربي (ولو طارت معزة !) فاذا كان غير مغربي فلماذا
رحله الى المغرب ! واذا كان كبيرهم وهو الحسن مغربيا فكيف
لا يكون اتباعه مغاربة ؟ ان التجنيس والحماية لم يكونا معروفين
في ذلك العهد ، حتى نقول ان هذا الامير الادريسي قد بدل
جنسيته او اتخذ حماية اجنبية فلم يبق مغربيا ... على انه مع
طريق هذا الاحتمال الذي جرت به النكته فهذا المنصور بن ابي

عامر قد عاد فنزع عن الشريف هذه الجنسية او الحماية ورده
الى مغربيته!....

ثم قال الناقد انه لا يرتاح لجعل القطعتين اللتين اوردناهما
لهذا الامير من قصيدتين مختلفتين كما يعطيه ضنيعنا، واننا لم
ننقلهما عن ابن البار الذي توقف في كون الثانية من الاولى
ام لا. ونطمئنه الى اننا نقلنا عن ابن البار مباشرة وهذا لفظه
في الاولى: (وهو القائل يخاطب المروانية) وفي الثانية: (وقال
الحميدي له قصيدة طويلة يمدح بها مؤيد الدولة هذيل بن خلف
ابن رزين صاحب القلاع ويهجو غيره) وذكر منها ثلاثة ابيات
الثالث منها حذفناه لاننا لم نستحسنه ثم قال: (ومنها) فأورد
البيتين الباقيين ونص على انه لم يذكر منها غير هذه وتوقف
في كونها من الاولى ام لا

وانا لاختلاف السياق الذي عند ابن حيان من كون
ابيائه في مخاطبة المروانيين والسياق الذي عند الحميدي من
كون القصيدة في مدح مؤيد الدولة مع تصريح القطعتين معا
والعادة ان التصريح وخصوصا عند المتأخرين لا يكون الا في
اول القصائد ولا يتكرر في اثنائها رجحت انهما قصيدتان
وكفى!...

وحضرة الناقد الذي طرق هذه الاحتمالات كلها في مغربية
الامير ابراهيم بن ادريس وادار وجوه البحث في قضية هاتين
القطعتين، لم يكلف نفسه قليلا من العناء في البحث عن ترجمة

الشريف عبيد الله بن يحيى بن ادريس ليعلم انه ليس بمغربي
 وانه قرطبي قح ولا يصح عده في جملة الامراء المغاربة من
 الادارسة وهذا نص العلامة ابن الفرضى في تاريخ علماء الاندلس
 على ذلك: « من أهل قرطبة، يكنى أبا عثمان سمع من ...
 وكان متفنناً في ضروب العلم وكان الشعر أشهر ادواته ...
 شريفا بنفسه وبسلفه ... ولي احكام الشرطة ثم ولي الوزارة ..
 وتوفى رحمه الله في انسلاخ ذي القعدة سنة 852) ولكن الناقد
 حين كان همه الملاحظة علينا بأي صفة، كان يبحث ويتعب
 فلما جاء للاستدراك تغافل عن كل ما يجب من التحري
 والتثبت والغى النصوص الصريحة في عدم اندلسية هذا الشريف
 ليتسأل عن عدم عده في امراء الادارسة الشعراء، بينما كان
 يؤول نصوصا اخرى تدل على مغربية الامير ابراهيم بن ادريس
 ليجعله غير مغربي ويلاحظ علينا في ذكره .



ويخلص الناقد الى الفصل الثاني المتعلق بامراء دولتي زناة وملتونة فيشير عاصفة في فنجان - كما يقولون - من اجل كلمة، وهي كلمة حق لا غبار عليها، وذلك اننا قلنا ان التاريخ لم يحفظ اثرا شعريا من نظم امراء الدولتين لغلبة العجمة عليهم ولعدم استقرار الاحوال في ايامهم حتى يتشققوا او يتأدبوا فينكر هو هذه العجمة، ومع انها راجعة لامراء الدولتين معا فانه يلصقها باللمتونيين فقط ويقول كان الاولى ان نعمل عدم قولهم الشعر بالصبغة الدينية التي كانت تغلب على دولتهم فيا لله! ننكر ان تكون في القوم عجمة - وهم بربر - ونلصق بالدين تهمة من اعظم التهم وهو تنافيه مع قول الشعر! كان الشعر لم ينشأ في بحبوحة الدين ولم يكن الضحابة والسلف الصالح يقولون الشعر وهم اشد الناس تدينا

ثم يذهب الناقد ليقوم الدليل على عكس ما قلنا فلا يأتي بشيء، يقول انه سيتخطى بالذكر اللمتونيين الى اللمتونيات فلم يتخطاهم؟ الجواب واضح وهو انه لم يجد بينهم من قال شعرا او انتج ادبا، فاذا اتى الى اللمتونيات ذكر فتيات كن يروين شعرا ويحفظن ادبا، اريها السهي وتريني القمر!.. ان الخروج عن الموضوع يؤذن بالافحام كما يقول علماء الجدل ونحن ايها الاستاذ في صدد من قال شعرا من نظمته من اللمتونيين لا من حفظ شعرا او روى ادبا.

ويسبح الناقد في بحر الكلام عن يوسف بن ناشيت
والمعتمد بن عباد وما حمل به خصوم المغرب واعداً الاسلام
على يوسف وما شوهوا من سمعة اللمتونيين وطعن مؤلفي
كتاب المطرب في ادب المغرب وذلك موضوع فرغنا منه قبل
بضعة عشر عاماً فما احسن ما تقوله العرب في الصدى صمى
ابنة الجبل مهما يقل يقل

وتطرق الناقد في الفصل الثالث للكلام من جديد على
الاحاطة والشمول فاستدرك ابيانا للمهدي بن تومرت نقلها عن
الصفدي والعجب كل العجب منه كيف ابعد النجعة وترك
ابيانا له في القرطاس بجانب الابيات التي ذكرناها له، فما دام
همه هو لا نحن الجمع والاستيعاب فلماذا تركها ولم يستدركها علينا؟
لكننا كما علم القاري ما كان وكدنا قط في الكم بل
في الكيف، وهذا من اوضح الادلة على ذلك فلينظر القرطاس
كل احد، ليري اننا اخذنا منه ثلاثة ابيات للمهدي وتركنا
بازائها ثلاثة ابيات اخرى له بل مساجلة ربما تكون برمتها
من نظمه، لم ننقلها لاننا لم نرد ان نكون كحاطب ليل لا سيما
ونحن نقيم الحجة على المنكرين لادب المغرب.

وتورك الناقد على قولنا في الامير موسى بن عبد المومن
«اذ كان مجهول الترجمة» فقال كيف ساغ لنا ان نقول (انه)
مجهول الترجمة ونحن ننقل عن القرطاس ولا نزيد عليه
والقرطاس قد طبع مرارا وذلك بالفاظ يلزمها كثير من الصقل

في معمل الذوق المهذب فلتتركها ولتنظر في الموضوع.
ان حضرة الناقد الذي لم يترك سلما الا توقله لاجل
الملاحظة علينا بما رأى القارى بطلانه، قد اتخذ وسيلة اخري
في هذه المرة لاجل الملاحظة وهي تبديل كلامنا بغيره فنص
كلامنا هو هذا «اوردت هذه الحكاية لزيادة التعريف بكتابها
اذ كان مجهول الترجمة تقريبا» وهو يقول اننا قلنا انه كان
مجهول الترجمة يعني ولم يبق مجهولها ومن ثم تأتى الملاحظة
مع ان الفرق ظاهر بين اذ كان وانه كان. فالعبارة الاولى
معناها حيث انه مجهول الترجمة والثانية معناها ما اراد ان
ينسبه اليها ليلاحظ عليه وشرح ذلك يطول.

وما قاله عنا في هذا الصدد يصح ان نقوله عنه فيما ذكره
هو عن الامير موسى بن محمد بن يوسف ابن عبد المومن
المترجم في مخطوطة الاحاطة من كون ترجمته كأديب (كذا)
شاعر مجهولة حقا، ولاكنا لا نتعلق بهذه السفاسف ونوافق الناقد
من حيث لا يود هذه الموافقة على ان ترجمة هذا الامير الشاعر
لا تزال مجهولة لحد الان فان ما اثبت له في الاحاطة من نظم
ليس بشعر عندنا ولا عند احد من اهل الفن الادبي وهو هاذان
البيتان اللذان انشدهما له ابو المطرف بن عميرة يخاطب
بهما ابا الحسن بن حريق ليحثه على نظم الشعر في عروض الخبب:
خذ في الاشعار على الخبب فقصورك عنه من العجب
هذا وبنوا الآداب قضا بعلو محللك في الرتب

ويلحق بهذه الترجمة ترجمة الأمير منصور بن عمر بن
عثمان بن يعقوب المريني التي نقلها الناقد عن مخطوطة
الاحاطة بنصها وفصها ثم قال انها عزيزة المثال.

الله اكبر! ما لاحدكم يبصر القذاة في عين اخيه ولا
يبصر الجذع المعترض في عينيه! لما نقلنا ابيانا عن القرطاس
وكلمات مهد لها بها صار الناقد يتندر علينا بالاغتراف من
بحر الغير وحين نقل هو ترجمته بحذافرها عن ابن الخطيب
و (ناقور) الفاظه يصم الاذان، لم يكن يغترف من بحر الغير
بل صار يمتن بها ويقول انها عزيزة المثال
ثم اورد شعر هذا الامير وهو قوله يخاطب ابن قطبة:

سوف تنال المنى وترقى مراقبي العز والمعالي
فانت عندي بها حقيق يا حائز الفضل والكمال
وهذا النظم عند صاحب الاحاطة ثلاثة ابيات بزيادة بيت

في الوسط وهو:

اذا حططنا بارض فاس وحكمت في العدا العوالي
فلا ادري لم حذفه الناقد وهو الحريض على الاحاطة والشمول؟..
واني لاعجب من امر هذا الرجل، وهو الاديب الحصيف
كما يدعى كيف يرى ان هذه الانظام اشعار وكيف يريد منا ان
نذكرها في معرض المباهاة بادب المغرب الرفيع وكيف لم يدرك
اننا تخطيناها وامثالها عمدا لا لكوننا لم نجد لها كتخطيه
المتونيين للمتونيات لكونه لم يجد لهم (ولا لهم) اشعارا، بل

لأننا لم نرضها ولم نرها شعرا ولم نرو في المجموعة ما يشابهها
 من النظم العاري عن كل معنى شعري، والعرب بالباب،
 وقد رأينا نقلنا عن مخطوطة الاحاطة في غير هذا الموضع من
 الكتاب لو امكن النظر، فكان يدري اننا غنيا عن هذا النظم
 التافه لا سيما وان هذين الفصلين فصل الموحدين وفصل المرينيين
 عامران في الجملة بالامراء الذين لهم شعر يستحق ان يطلق
 عليه هذا اللفظ - على اننا حتى لو لم يكن الامر كذلك لم
 نكن لنستكثر بما ليس تحته طائل ولا نتحلى بما يكون
 العطل خيرا منه ولو اتسع لنا المجال لبينا كيف حذفنا ذكر بعض
 الامراء وبعض « اشعارهم » من المجموعة وهم من غير هاتين
 الدولتين المنجبتين .

وقد سئمت من كثرة ذكرى للاختيار والانتخاب وان ذلك
 هو رائدي في هذه المجموعة لا الجمع والاستيعاب كما يريد
 الناقد، ولذلك فاني لاجل الاختصار، اقف القاري على ما ذكره
 الناقد فقط من « اشعار » السلطان ابي العباس المريني المحذوفة
 عندي ليرى رأيه في هذه الذخائر الادبية التي اهملها فاولا
 قوله :

يا عاذلي دع عنك عدل العاذل

واخلع عذارك في الحبيب الواصل

واذا ذكرت عشية بمحاسن

فاذكر عشاينا بدار العادل

فهذا « الشعر » فضلا عن كونه مثل قول الاعشى :

شاومشل شلول شلشل شلل. وقول المتنبي

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل هم كلهن قلائل

لا كبير معنى فيه بله الاضطراب الذي فى اوله من مخاطبة
العاذل بطرح عدل العاذل فهو يجعل الشخص الواحد شخصين
وانت خير بکراهية الادباء للجناس المتكلف اذا سلم من
الایراد فكيف به مع هذا ؟ ..

ثانيا قوله « وهما البيتان اللذان قالهما في فاس وخاطب
بهما كاتبه ابا الحسن بن الخطيب خلاف ما يعطيه صنيع
الناقد من انهما نظمان لا نظم واحد :

يا فاس اني وأيم الله ذو شغف بكل ربع به مغناه يسبيني
وقد شغفت بقرب منك يا أملي ونظرة فيكم بالانس تحييني

فليلاحظ القاري الاديب هذا التفكك بين الصدر والعجز
في البيت الاول وهذا « بكل ربع به مغناه » وهذا « يا أملي »
التي تذكرنا « بياذكى » في قول ابن عاشر رحمه الله .

محال الكذب والمنهى كعدم التبليغ يا ذكي

ثم ليقارن كل ذلك بالابيات الجميلة التي اوردناها له

مقتصرين عليها :

اما الهوى يا صاحبي فالقنه وعهدته من عهد ايام الصبا
 ورايته قوت النفوس وحليها فتخذته دينا الي ومذهبا
 ولبست دون الناس منه حلة كان الوفاء لها طرازا مذهبها
 لكن رأيت له الفراق منغصا لا مرحبا بفراقنا لا مرحبا

فبالله عليكم ايها القراء هل تجدون ادنى مناسبة بين هذه
 القطعة الوجدانية المشرقة وبين تلك التلفيقات التي ضربنا عنها
 صفحا ولم نشوه بها وجه ادبنا الاميري الواضح؟

ولعلي سأخالف ما التزمت فاذكر للقاري شعر السلطان
 عبد العزيز بن ابي الحسن الذي اهملته في المجموعة ولاحظ
 الناقد على عدم ذكره ولكنه طواه فلم ينشره هو ايضا كانه
 شعر بما في تسميته شعرا من المجاز (المطلق) الذي ليست له
 علاقة!! وهو قوله مذيلا على بيتي والده المذكورين في المجموعة.

وارغب خالقي في العفو عني واطلب حله يوم الحساب
 وارجو عونه في عز نصر على الاعداء محروس الجناح
 وعبدك واقف بالباب فارحم عبيدا خائفا الم العقاب

فليلاحظ القاري الاديب هذا الاستعمال العامي لارغب في
 قوله «وارغب خالقي» ثم ليقول لي هل هذا ختم لدلائل الخيرات
 او هو شعر طاعوني من ديوان القائل:

الله حي صمد وباق سبحانه ذو كنف وواق
 يا رب نجنا من الوباء الطعن والطاعون والبلاء

وما أشبه هذا الذيل بالذيل الذي نحن بصدده!

وقد اثقلنا هذا الجو الشعري الخافق، فصرنا ندلف الى هذه الامثولات وكاننا نجر انفسنا جراً فلتتدرع يا قارئ العزيز بالصبر فاننا على وشك اراحتك من هذه العيضة قال الناقد، المعروف ان للسلطان ابي عنان مقطوعات غزلية متناثرة في مختلف المصادر ولكن صاحب الكتاب لا ينقح الا بالنزر اليسير، وبذلك حرم قارئه من خمس نتف فيها ابو عنان على هذا الوتر حين يقول:

الف الفراق فؤادي — فعدا اشتياقي نامي —

واطال لهف تشوقي — فبدا اصطباري نائي —

وتوقدت نار الحش — فطلقت دمعي هامي —

بالله يا عرب النقا — ردوا علي سلامي —

فاما قوله ان هذه المقطوعات متناثرة في مختلف المصادر فليس بصحيح بل هي مجموعة في الجذوة عند ابن القاضي في صحيفة واحدة، اخذ بعضها برقاب بعض وذلك ايضا من اصدق البراهين على اننا نتخير من اقوال هؤلاء الامراء وناخذ ونرد لا ان ما لم تثبته فاننا ولم نطلع عليه حتى يستدركه علينا واما كونني حرمت القاري من هذه النتف الخمس فلا يصح الا اذا كنت استهين بذوق القاري واتهم ادبه وحاش لله فان قارئ

عزيز علي، وقد ازحت عنه ثقلا حين لم أر وله هذا «طلقت
دمعي» وبقية هذه المقطوعات الخمس التي منها أيضا.

يا عاذلي في غرام دعني وطول الملام
دع مستهما كئيبا جفاه طيب المنام
وجسمه قد ثمادي عليه فرط السقام
وحبه «لن يحول» مخلدا «للقيام»

فكيف يرى قارئ هذا «دعني وطول الملام» هو ينهائ عن
الملام، ويقول دعني وإياه وكيف يرى هذا «لن يحول» في
حكم العروض، وكيف يرى هذا «مخلدا للقيام» في حكم
الصناعة الأدبية؟ ثم ألا يعذرني في تغييض عيني عن هذه النثف
الخمس وصرف اذني عن هذا «الوتر» الذي ضرب عليه ابو
عنان مكتفيا بما هو حقيق ان يعد شعرا من نظمه؟ بلى! فاني لا
اكتمك ايها القاري ان في نفسي شيئا من احدى القطع التي
اثبتتها له في المجموعة وكم فكرت وقدرت حين الجمع والتاليف
ولو استقبلت من امري ما استدبرت لجعلتها نثفا ستا وزيد في
شطرنج الاستدراك بغل!

وهنا ينتهي الناقد ويلمح الى التقصير في ادب السعديين
والعلويين والى مصادر الادب المغربي والكلام في ذلك طويل

عريض فلنتركه الى سوح فرصه ثم يقول انه لم يهدف بهذا
الذيل الى تنقيص او تهجين (اطرق كرا).

كل امري حسن في عين والده

والخنفساء تسمي ابنها القمر

وقد رأى القاري ان هذا الذيل اشبه ما يكون بذنب
العصفور يمسك به الصبي فيفلت العصفور من يده ويطير محلقا
في الاجواء مخلفا الذنب في يد الصبي...



إن كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا

ذكر ابن الخطيب ان القاضي ابا الحسن النباهي المدعو بجعسوس كان مثلا في الغفلة والغباوة وكان يكثر في كلامه من ذكر هذه الكلمة جعسوس (والجعسوس في اللغة القصير الدميم) فذات مرة قال لبعض عدوله: تنكروا ما يتردد في كلامي من لفظ جعسوس كأنه ليس من كلام العرب بل من الفاظ القراء! فقالوا له أما في كلام العرب فربما واما في القراء فلا نعرفه. فضحك وقال: سبحان الله اعيدوا النظر! فقالوا والله ما نعرفه، فقال الم يقل ولا تجعسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا؟! فقالوا والله ما قال الله ذلك قط، وانما قال ولا تجسسوا قال فاسترجع وقال حفظ الصغرا!،.

ونحن نترحم على روح هذا القاضي المسكين ونرثي لكل شخص مثله يريد ان يرتفع فيقع ويحاول ان يستشهد لاصابته فيشهد الناس على خطله.

هذا حضرة الناقد لما الزمناه بان شروط دراسة شعر هؤلاء الامراء غير متوفرة، صار يقول انه لم يرد الدراسة وانما اراد العرض الادبي المنهاجي، ثم اتى بنص كلامه ليستشهد على ما نفاه

وهو قوله «ولعل في حياة الامراء السادة امراء الدولة الموحدة ما يهدي الباحث الى مكامن هذه الشاعرية، واخلاق بحياة اصطلاح على تاليف عناصرها الادب والغرام والفروسية والمدام ان تكون حرية (بالدرس والتحليل) في هذا المقام».

فاسمعوا وعوا ايها الناس! لقد تبرع الاستاذ بعد الدرس بالتحليل وهو ينكر ان يكون قال شيئا من ذلك؟

هذه مسألة!

ومسألة اخرى، لاحظنا على الناقد وثوبه من امراء ما قبل الدولة الموحدة اليهم وتخصيصهم بامكان دراسة اثارهم الشعرية في قوله «ولعل في حياة الامراء السادة امراء الدولة الموحدة ما يهدي الباحث الى مكامن هذه الشاعرية...» وقلنا في هذه الملاحظة «كان الكاتب مقتنع في سريرته بان حياة امراء غير هذه الدولة ليس فيها ما يهدي الى اسرار هذه الشاعرية» فعقب على هذا بقوله انه مقتنع سرا وعلانية بانه غاب عنا قولهم (المثال لا يخصص).

ونحن نقول انه قد جهل جهلا مطبقا ما يعرفه صغار الولدان من معنى لعل وانها ليست للتمثيل وانما هي للترجي والتوقع وفي اصطلاح قوم للطمع والاشفاق فحضرتة حين قال ولعل في حياة الامراء الموحدين ما يهدي الى مكامن الشاعرية كان يرجو ويطمع انه اذا بحث تلك الآثار ودرسها دون غيرها ربما

يجد فيها ما يهديه الى اسرار شاعريته ولم يكن يمثل، وما اراد المثال، وهو لو اراده جهلا يكون قد استعمل حرفا (جا' لمعنى) فيما لم يجي' له فعلية ان يتعرف لدنيا النحاة ولا يعود لتمثيل هذه المهزلة «الجمعوسية»...

هاتان مسالتان تتعلقان بصلب الموضوع. وبقي سباب ومهاترة سوف لا نقابلهما بمثلهما ولكن لابد من التعليق عليهما بما يستحقان:

فالنقاد لغروره واعجابه بنفسه كان يظن ان لا غاية بعد ما كتبه وأنا سوف لا نرفع رأسا بالرد عليه وتصحيح اغلاطه، فلما خاب ظنه صار يرغي ويزبد ويجري على لسانه ما لا يقصد قائلا انه كان يكفي عن الرد عليه ان نقول ان ذلك سبق لسان وهما كلمتان خفيفتان! فيا للاكتشاف العظيم! ويا للنظرية العلمية الجديدة!

ايها الكتاب في جميع اقطار العالم! ايها النقاد في سائر اطراف الدنيا! لقد فاتكم من العلم بقدر ما ضاع من عمركم في تسويد القراطيس، انه لا يجب بعد اليوم اولا يجوز «لانا لا نعرف حكم ذلك عند حضرة الناقد، أن تراجعوا الناس في آرائهم او تردوا المخطئين الى صوابهم وانما يكفيكم ان تقولوا سبق لسان! وهما كلمتان خفيفتان! فاقبعوا في دوركم! وناموا مل جفونكم، وحطموا اقلامكم، وطلقوا حياة الكتابة طلاقا باثا،

واذا عرض ما يمتضى سكم طرا او مراجه فقولوا سبق لسان
وهما كلمتان خفيفتان .

وعفوا ايها الناقد الكريم والمكتشف العظيم ! فقد جاوزت
الحد واسأت الادب بالرد عليك ومراجعة ما كتبت فما كنت
احسب انك المعنى بقول حسان :

اذ قتال لم يترك مقالا لقائل
بملتقطات لا ترى بينها فصلا

كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع
لذي ارب في القول جدا ولا هزلا

وان المتنبي قصدك بما قال :

من مبلغ الاعراب اني بعدهما

جالست رسطاليس والاسكندرا

وسمعت بظليموس دارس كتبه

متملكا متبديا محتضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما

رد الاله نفوسهم والاعصرا

وان العرب فيك وضعت المثال « كل الصيد في جوف الفرا »

وان الحسن بن هاني كان ينظر الى الغيب من ستر رقيق

حين وصفك بقوله :

ليس على التله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

ثم ... ثم ما ذا؟ ثم (0)

وجعلوا صفرا علامة الخلا وهو مدور كحلقة جلا
وتندر حضرة الناقد الفاضل بكتيب امراؤنا الشعراء قائلا
اننا دعونا كتابا وربما ندعوه سفرا ولكن الامر بالعكس فاننا
لا ندعوه سفرا ولا كتابا بل ولا كتيبا ولنحسبه ورقة فقط
وانما حسبه انه اكل اكبادا واطار عن بعض الاجفان رقادا:
والنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

وقد تعرضت في القسم الاول من الرد الى شرح طريقة
الكتاب الذين عنوا بدراسة آثار الادباء وكيف ان بعض المقلدة
الذين يعرفون بما لا يعرفون يأخذون تلك الاقوال ويحاولون
تطبيقها في غير موضوع وصرحت بانني قرأت شيئا من ذلك
لبعضهم وانهم يكثرون من الالفاظ الطنانة التي لا طائل تحتها
بينما هم يعرضون بيتا او بيتين لاديب او شاعر لا يعرف له
غير ذلك، فظن الناقد ان الكلام موجه له، وصار يتعب نفسه
في استعراض كلامه ويتسأل اين توجد تلك الالفاظ فيه،
وهذا دليل على العجلة وعدم التروي وسوء النية، فهل كان
لزاما على ان استعمل الفاظه ولا اخرج عنها حتى في شرح
الطريقة التي اراد ان يلزمني بها وانا ارى لا محل لها، اما
كان يكفيه اني اشرت الى ان بعضهم حاول تطبيق ذلك
بالفعل لا اقترحه، وانه خرج منه بغير نتيجة بل بنتيجة تبعث

على السخرية والاستهزاء وهكذا مر الناقد يتدحرج مع هذا
الفهم المقلوب فانا اقول ان شعر الامراء ولا سيما المغاربة قليل
ومن اكثر منهم فاكثاره نسبي ثم ان طبقته ونسبة بعضه
فيهما مقال فيقول هو اذا كان كذلك فلماذا قلت فيه انه خصب
ولماذا بينت ما هو منسوب لبعض الامراء ولم تبين البعض
الاخر، فليفرخ روعك يا استاذ! ان الكلام يفسر بعضه بعضا
والاشارة لا قرب مذكور كما تقرر في محله، وكان علينا ان
نبين هذا لغير من يدعي ما يدعي:

فشعر الامراء قليل لا تتوفر فيه شروط الدراسة التي تريد
والمكثر منهم انما يعد مكثرا بالنسبة لغيره من الامراء لا
بالنسبة لغيره من الشعراء، وهذا كالامير سليمان الموحدي
وديوانه كراستان ثم ان طبقته ليست الطبقة التي لا يعلى
عليها ويكفيك قول ابن سعيد المغربي عنه في كتاب الرايات
«ديوان شعره مشهور، ولم اجد فيه ما يشفع له في هذا المجموع
غير قوله، الابيات التي قالها لما هجره المنصور، وقول ابن
سعيد هذا يفسر لنا تهافت المؤرخين على نقل تلك الابيات
وانا انما اوردت كلامه ليلا ادلي برأيي الذي لا يقبله الناقد.
ومع هذا وذاك فلا يخفك ايها الناقد ما في نسبة ذلك
الشعر الى الامير سليمان من مقال وكلام صاحب المعجب
في هذا الصدد، فأين ذهب بك عن هذا كله وجعلت تقول
لم بينت هذا ولم تبين ذاك؟ والخصب الذي لم تنسه كما لم

نفس نحن (الدراسة). راجع الى ادب الامراء في جملته لا في
تفصيله والى انتاجهم جميعا لا الى انتاج واحد بعينه!...
وبعد فاليك يساق الحديث. يا ناقدى العزيز فما رجوته
وطمعت فيه من امكان دراسة شعر الامراء الموحدين دراسة
فنية هو الذي يرد عليه هذا ونحن لم نجابهك به رعا لادب
النقد وادارة الكلام على وجه ليس فيه مس بعواطف الشخص!
وقال الناقد اننا (نتسامى) للملاحظة عليه وكرر ذلك
فشعرنا ان في العبارة تحريفا وان صوابها اننا تنزلنا للملاحظة
عليه وتواضعنا لله بتصحيح غلطه كما تواضع له رافع بن جبير
بالجلوس في حلقة الخرقى؟

ثم تعلق بقولنا اننا نلقن الناس مواضع العبر والفخار
من تاريخهم فقال ان هذا موقف الواعظ المذكر لا الاديب
المؤرخ، ولا ادري اذا كان في الدنيا عقل (غير عقل الاستاذ
بالطبع) فاحرى قانون يمنع ان يكون المؤرخ الاديب واعظا او
مذكرا، وهل التاريخ كله الا وعظ وتذكير.
وهل قص القرآن العظيم اخبار الانبياء والامم الماضية الا
ليتعظ بها الناس ويتذكروا والذكرى تنفع المؤمنين.

الا ان الامر واضح فالاستاذ يريد منا ان نتحدث عن
حياة الغرام والمدام التي كان يحياها هؤلاء الامراء ونحن مع
ما اسلفنا من اعواز مادة ذلك الحديث، نعترف له بكل صراحة
اننا لا نحسن ذلك، واذا احسنه فنحن لا نحب ان نحدث

الناس به، ونفضل أن نعظ ونذكر ونحلى هذا الجانب الخصب
من الادب للناقد فليجل في جولاته البهلوانية فما اولاها به:
انا اقتسمنا خطتنا بيننا...

واخيرا يغلى الدم في رأس الناقد ويغتاظ، والغيط من
الشيطان فيبرق ويرعد ويهدد ويوعد ونحن لترويحہ وتسليته
نحكى له هذه الحكاية التي ضربت مثلاً في شبه هذا الموقف:
زعموا ان فأرة وقعت في دن خمر فشربت فسكرت
فقال: اين القطط...؟ فلاح لها هر فقالت لا تواخذ السكارى
بما يقولون!..



يظهر ان حضرة الناقد غضب علينا فسلب عنا وصف
 الصداقة الذي كان اول من خلعه علينا ورحبنا به لان صداقته
 مما يرغب فيه ، فلا ندري ماذا جنينا عليه الان حتى يكتب
 (الى الاستاذ) ولم يكتب (الى صديقنا)؟ اهو جوابنا له وفيه
 من العنابة به والاكبار من شأنه وتعظيم قدره والتنويه بعلمه
 ما فيه؟ ام هو وصفنا له بالناقد - وبينه وبين النقدبون - اجترأ
 عن كثرة وصفه بصاحب الذيل لان هذين المتضايفين يذكراننا
 بالحلقة المفقودة للربط بين الانسان والقرد في مذهب
 داروين؟ ام انه بعد ان فكر وقدر، وعبس وبسر، وادبر
 واستكبر لم يرنا أهلاً لهذه الصداقة فعاد يستردها منا ظاناً ان
 الامر من السهولة بهذا المكان؟

كلا! ثم كلا! فنحن متمسكون بهذه الصداقة، واضعون اليد
 على قذالها، لا نتركها تلعب ادوارها البهلوانية دون ان نقول
 لها حين تتدحرج او تترجرج: هس! هس! عدس! عدس! وذلك
 من الغيرة عليها والضمانة بها فانها علق نفيس لا يتسامح فيه
 وماذا يقول (صديقنا بالرغم عنه) في هذه المرة؟

انه بعد ان استعرض كلامنا في المصادر وطرق ذكرها
 عند المؤلفين قديما وحديثا لم يجد ما يتعلق به الا ما ألمعنا

اليه من حماية المؤلفين لجهودهم من الادعاء والسطو، فيخرج
بنفسه في موضوع هو ابعد الناس عنه لانه يحسب كل صيحة
عليه، ويتبجح بمصادره التي نعرف انها كثيرة ولاكن في
خزانة (المكتبة المغربية العامة)!

والمعجب في هذا الحديث هو هذه الارابة من الاستاذ
فنحن اذا قلنا ان بعض الكاتبيين حاول ان يطبق طريقة
الدراسة الادبية على بعض الشعراء الذين لم يرو لهم الا البيت
والبيتان، ظن انه المعنى بذلك وجعل يتنصل ويتبرأ ويقول
انه لم يفعل ولم يحاول! واذا قلنا ان بعض المؤلفين يفضلون
طريقة ذكر المصادر مجملة في أوائل او أواخر كتبهم هماية
لانتعابهم من الاستراق والاستلاب توهم اننا نعرض به فصار يخط
خبط عشواء متلمسا لموقع الحجة بالدعوي او السفسطة على انه
لا يستلبي ولا يسترق... وكاد المريب ان يقول خذوني...
ثم يرجع الينا فيصحح كلامه في الذيل والتعليق الذي كان
يقول فيه اننا لا نذكر المصادر وان كتابنا خال منها؛ وذلك
بحصر الدعوي في عدم ذكرنا للمقري وابن القاضي فقط،
فما عدا مما بدا؟...

لقد صار الناقد يتراجع عن غلوائه ويرى اننا لم نذكر
المقري وابن القاضي فقط ولربما بعد حين يرى انه لا موجب
لذكر هذين ايضا؛ لان اثاره مسألة المصادر من اول يوم انما
كانت كالتسبي زيادة في الكفر!

ولكن بربك ايها القاري اي مناسبة بين اهتضام آثار المؤلفين وأرائهم وعدم نسبتها اليهم، وهو موضوع الحديث كات - وبين ذكر قول مشهور او خبر ماثور مع نسبتهما لصاحبيها وهما التاج ابن حموية وابن سعيد المغربي وان لم تذكر وساطة المقرئ في ذلك؟ ... اهذا من باب ما كنا فيه؟ اليس قد نسب الخبير لصاحبه والقول لقائله ولا علينا فيمن ذكره لان المطلوب هو امانة النقل وعدم تحريف النص؟ الا يستعمل المقرئ نفسه ذلك مع ابن الخطيب وغير ابن الخطيب حتى لينقل مسودة كاملة ولا ينص على موضعها من كتبه وابن القاضي؟ الم يكذب يكون نقلا مجردا عن كتب الآخرين بدون تسمية ولا نسبة فاحرى النص ينقله بواسطة غيره؟. هذه هي طريقتهم يا صديقي عبد الرحمن في الكتب الاصول والموسوعات الكبرى فما بالك بكتاب استغفر الله، بل بورقة امراؤنا الشعراء؟

« والنبوغ » من الذي زج به في هذا المبحث غير حضرتك؟ الم تقل انه كذلك خال من ذكر المصادر - كما تريد - وان هذه شنشنة اخزم؟ فاضطررنا لان نقول لك ان النبوغ مصادره فيه، ذكر بعضها عند الاقتضاء استطرادا على طريقة القوم ثم ذكرت جميعها باخروه وان مالمزته به من النقل مباشرة عن كتب غير موجودة هو من عدم التحرير وقلة الانصاف والافمن المعلوم ان الحاكم على ما في الكتاب

هي المصادر المذكورة باخره على انها مراجعه ومواده فحيث
لم يذكر الكتاب المفقود مع تلك المصادر عُرف ان النقل عنه
بواسطة لامباشرة، والمهم كما قلنا انفا هو التثبت والتحري وليس
على المؤلف حتما ان يذكر من اين استمد معلوماته ولكن الذي
عليه ان يحقق هذه المعلومات فاذا زاد وذكر استمداده كما
فعلنا فذلك الكمال!

هذا وجه القضية وعرض حال المسالة لا اننا ذكرنا النبوغ
لنحيل عليه في مصادر (امراؤنا الشعراء) كما لم يتورع ان
يدعى ذلك حضرة الناقد...

وتاتي شهادة المستشرق بروكلمان في هذا السياق حيث
انه اعرف الناس بمسالة ذكر المصادر وترتيبها وتفصيلها
وتبيينها، وان شاء الناقد فليقل لا، وهي شهادة لها من القيمة
بقدر ما حظ حضرته منها على حد ذم الثعلب للعنب في قول
الشاعر:

ايها العائب سلمى انت عندي كئعاله
رام عنقودا فلما ابصر العنقود طاله
قال هذا حامض لما راي ان لايناله

وعندك ما يقوم مقام شهادة من ذكرت من الاعلام فاقرأ الفصول
العامة التي كتبها امير البيان المرحوم مقدمة للطبعة الثانية من هذا
الكتاب حين تصدر بحول الله او ابعث لي اولئك الاعلام من

مرقدهم^١ أنك بشهادتهم فانهم رحمهم الله كانوا مثال التواضع
والانصاف في غزارة علمهم وسعة نظرهم؛

واما الاعتداد بشهادة هذا الاجنبي وانه ليس من هدى
الاسلاف، فمن قال ان الاسلاف لا يعتقدون بشهادة الاجانب؟
هل كان الاسلاف من التعصب وقلة النظر بالمكانة التي
يجعلهم فيها حضرة الناقد فلا يقبلوا كلام الاجانب وهم المتواصون
بطلب العلم ولو بالصين واخذ الحكمة التي هي ضالة المومن
من اي وعاء خرجت .

وهل الذين اطلعوا الاسلاف على دنيا العلوم وفتحوا لهم
ابواب المعارف الا اجانب كانوا يلقون من اولئك الاسلاف
كل عناية وتقدير؟

هذه مناورة مفضوحة !..

ولكن كل هذا لا يهم، وانما المهم ان الاستاذ ضحك في
هذا المقال، بعد طول العبوس واستصحاب الجهامة منذ ابتداء
هذه المناقشة، وما كان الامر ليقترضيه كل هذا الجد بل الغيظ،
فما زال الناس يؤلفون، والنقاد (حقيقة) ينتقدون، والمنتقدون
يردون على النقاد (فاما الزبد فيذهب جفاً؛ واما ما ينفع الناس
فيمكث في الارض).

ضحك الاستاذ فيما بشري !

اضحك الله سن من اضحكه ! وان قال انه ضحك مقرون
بالبكاء؛ فلا بأس. انه كقول العامة «ضحك مارس وتسلّى ابريل» !
بلى ! انه ضحك الجوزة تحت الحجر. فياما اغربه من ضحك؟ !.

كان بآخر المقال السابق (تقرير) على (حاشية) الناقد واهمل
 - ربما لضيق نطاق الجريدة - وحيث ان الحاشية اشتملت على
 ثلاث نقاط مهمة لا يمكن السكوت عليها فانا نعيده هنا اكتفاء
 به ولو توفرنا للرد عليها ل طال الكلام وخرجنا عن الموضوع.
 وهذا نص التقرير:

رجع الاستاذ الى القول بان لعل للترجي لا للتمثيل
 والرجوع الى الحق فضيلة! واعترف بان الذي يمكن ان يدرس
 هو اخبار حياة هؤلاء الامراء - ان وجدت - لا اشعارهم وهذا
 انصاف كبير! .. وقال اننا أغرنا على رسالة التبريع والكدوير،
 وغلط في الاسم فانا اغرنا على رسالة «التقصير والتكوير»
 والغلط يرجع من التليس!

اما مسألة الكلام المشوش فاننا فكرنا فيها وهمنا بان
 نرجو من حضرته ان ينوب عنا في تصحيح تجارب الطبع
 لوجوده هناك بقرب المطبعة لا كنا رأينا كلامه اكثر تشويشا
 فيئسنا ...

ونرجع الى ما نحن في صده وهو مقال حضرة الناقد
 في مسألة العزفيين الذي نحت فيه اثلته ونفض كئانته وابرز
 مكنون علمه - كما كان وعد - فاذا به يرجع الى القول
 القديم وهو ان العزفيين كان يجب ان يذكروا ضمن
 امراء المغرب الشعراء «ولا شأن لما يكون هنالك من اعتبارات»

هكذا بهذه العبارة التي لا تصدر ولو من فقيه مهوس امام
تلامذة مغفلين!

وزعم ان المؤرخين وكتاب التراجم وصفوهم بالامراء
والسلاطين فطالبناه بالدليل ومن هو هذا المؤرخ او المترجم
الذي وصفهم بذلك فبلعها وصار يغالط باننا اثبتنا لهم ذلك في
الكلمة التي نقلها عنا.

الله أكبر! بعد ان كنا لا نذكر المصادر في كتبنا
- كما زعم الاستاذ - صرنا الان مصادر يعتمد عليها ويكتفى
بها في الاستشهاد ..!

بعض هذه المراوغة يا استاذنا ان ما اثبتناه نحن هو وصف
المؤرخين وكتاب التراجم لهم بالرياسة وبعضهم وصف واحدا
منهم فقط عرضا بالامير والباقون وان ذكرهم في عداد
الامراء تارة وفي عداد الفقهاء تارة اخرى لا يصفونهم بالالروساء
ويتجنبون وصفهم بالامراء والسلاطين وهم ان ذكروا حسن
امرتهم وعدل سلطانهم فانما ذلك على سبيل التعظيم لرياستهم
والتنويه بشأنهم فآين قولك انهم وصفوهم بالامراء والسلاطين؟..
يقولون اقوالا ولا يعلمونها فان قيل هاتوا حقا لم يحققوا

وقلنا ان القوم كانوا ولاية مدينة وهي سبتة ولا يصح
بحال ان يعدوا في امراء المغرب لذلك فطار يغالط ويقول ان
الفقيه ابا القاسم العزفي استولى على طنجة واصيلا ردحا من
الزمن وللقاري الذي لا يكون على خبرة من الامر نقول ان

هذا الرئيس تولى طنجة فعلا ولكن عاما واحدا فقط، وفي أيام
الفتنة ومعنى توليته لها ان رئيسها او اميرها على اصطلاح
ناقدنا دخل في طاعته ثم بدا له فاستقل بنفسه.

واما اصيلا فانما ارسل اليها في ايام الفتنة فهدم اسوارها
خوفا من نزول النصارى فيها فهذه هي توليته لها.

وفائدة الخبر في هذا الامر ان الرجل حاول ان يخرج
من حلقة الولاية او الرياسة الضيقة الى دائرة الامارة والسلطان
الواسعة فلم يقدر له، ولو جئنا نعد كل نائر وكل محاول
لتأسيس دولة اميرا وسلطانا لكان عدد هؤلاء اكثر من عدد
الامراء والملوك الشرعيين.

وقلنا ان هذا الرئيس ابا القاسم لم يلبث ان ساقه
المرينيون بعصاهم ودخل في طاعتهم هو واولاده فكيف يعد
اميرا الى جنبهم او الى جنب غيرهم من امراء المغرب فقال
ان ابا زكريا منهم قد استقل كسلفه بسببة فياعجبا كم
يتعلق حضرته بالخيوط العنكبوتية ليصح نظرا خاطئا ويبطل
حقا واضحا؟..

والواقع ان ابا زكريا، هذا حاول الاستقلال فقاده ذلك
الى العزل والوقوع في الاغلال وذهبت بذلك ريح قومه واحت
رياستهم وما عهدنا الامارة المستقلة تكون هكذا...

والغريب من امر الاستاذ الذي كان حريصا على الاحاطة
والشمول واخذنا بها وبنى كل نقده تقريبا على اساسها اتنا

لما تبرأنا منها وقلنا معاذ الله ان ندعي شيئاً من ذلك، صار يتبرأ هو منها ايضاً ويقول ان الاحاطة الشاملة لا تكون الا لله عز وجل وان علمه تعالى هو الذي لا يغيب عنه شيء فيا سبحان الله! كيف يسرق احدكم دجاج جيرانه ويأتي بالريش على رأسه وهو ينكر ذلك؟..

لم تقع كلمة الاحاطة والشمول في كتاب امراؤنا الشعراء اصلاً ولا ما يرادفها في معناها والناقد نفسه لما اراد ان يلصق هذه التهمة بالكتاب صار يقلب كل حجرة ويفتح كل باب فلم يجد ما يتمسك به الا وهما وتمخلاً. ومع ذلك فان هذه المجموعة قد احاطت بكل ما هو معروف لحد الان من شعر الامراء المغاربة الذي يمكن ان يقال عليه انه شعر وما تركت الا النفايات والانظام الركيكة التي لا نسبة بينها وبين الشعر مطلقاً كما رأى القاري ذلك في سلسلة الرد الاولى .

وفي نقد الاستاذ الفاسي كاد الكلام كله ان يكون مبنياً على هذه الفكرة وهو الذي اتى بكلمة الاحاطة والشمول وما سمى نقده ذيلاً وتعليقاً الا لايهامه انه سيحيط بالموضوع من جميع جهاته ويشمل كل متعلقاته فلما اظهرنا له انه لم يحط ولم يشمل شيئاً وانه اول من يتوجه عليه هذا المأخذ جعل يتنصل ويسند العلم الى الله ويقول ان الاحاطة بمعناها الحقيقي لا تكون الا لله. وهذا من باب السماء فوقنا فنحن لم نطالبك بما فوق طاقة البشر وانما طالبناك بان تسير على نهجك الذي

رسمته بنفسك وتذكر كل من كان كالعزفيين ثولى شيئا
من الامر وقال الشعرو تستدركه علينا وذلك كالدلائيين ولوقاش.
لان هؤلاء بحسب شرطك ياتون اولا وقبل العزفيين لانهم ملكوا
اقليما لم يملكه العزفيون. واما لوقاش فقد ملك مدينة مثل سبتة
وهي تطوان وقال الشعر وادعى الخلافة بل ما هو اعظم منها،
فكيف غفلت عنه وعنهم ولم تثب اليهم بذيلك او يشبوا اليك...
والفضيحة كل الفضيحة؛ يقول الصوفية؛ هي التسبيح
والتنفيحة ونقول نحن هي ما وقع للاستاذ من المكابرة في هذا
المقام فانه لما توجه عليه هذا المأخذ ولزمه الحق في عدم ذكره
للدلائيين ومن تبعهم انبري يقول انه لم يذكرهم لانه لم يتكلم
على دولة الاشراف العلويين يعنى هؤلاء معاصرون لهم
كانه تكلم على العزفيين في اثنا الكلام على دولة بني مرين
المعاصرة لهم ..

فعلى من يدلس الاستاذ؟ علينا أم على القراء؟ .. أما علم
اننا ان نسينا ذكره للعزفيين في اول مقال واستدراكه لهم
علينا في طالعة الذيل والتعليق قبل ان يتناول الكلام على اية
دولة، فان من بين القراء من لا ينسى قطعا ؟ .. اما علم ان
الجريدة بيد كل احد وان الناس ان لم يحتفظوا بها لمقالاته
النفيسة فعلى الاقل يحتفظون بها لانهما سجل تاريخي للحركة
الوطنية في فترة من الزمن؟ ..
الواقع ان الناقد اثار مسألة الاحاطة والشمول واستدرك

الرؤساء العزفيين في الكلمة الاولى من ذيله وتعليقه قبل ان
يتعرض لفصول الكتاب ويتتبع شعر الامراء من كل دولة فلو
كان خطر الدلائيون له ببال لذكرهم اولاً مع العزفيين
ولطال وجال في كل مجال من شنيع المقال، لكنه لما
فاته تحقيق هذا المقام صار يتعلل بالاوهام ويمخرق بكلام النيام.
وقد كانت الكلمتان الخفيفتان على اللسان الثقيلتان في
الميزاب الحبيبتان الي « عبد الرحمن » اولى به هنا، فان
لم تطاوعه نفسه عليهما وهما لا يزيدان فينا ولا ينقصان منه،
فليضرب عن المسالة صفحا وليعترف اعترافا سكوتيا بما لزمه
فيها من الخطأ ولان يكون ذنباً في الحق خير من ان يكون
راساً في الباطل.



اصبح من خواص الاستاذ عبد الرحمن الفاسي الحيرة والاضطراب فهو يخطب خطب عشواء في ليلة ظلماً، لا يعرف ما يكتب ولا اى طريق ينبعج، فقد سجلنا انه دعانا بصديقه ثم نزع منا هذا الوصف، وقد كان يحلينا بالاستاذ فصار يدعونا بالاسم المجرد ظنا منه ان ذلك ينقص من قدرنا شيئاً، وقد كان يعنون مقالاته (بلبيك لبك) فكأنه شعر بما فى ذلك العنوان من برودة وضعف فغيره ولما ينته من رده بعد.

واصبح من خواص الاستاذ ايضا الخروج عن الموضوع فقد كان من حقه اذا اراد الرد علينا حقيقة ان يقول ان هذه المقطوعات التي استدرکها علينا بزعمه صالحة او غير صالحة وانها مما يفخر به الادب المغربي اولا وخصوصا بعد ان زيفناها تزيفاً ولا يغض الطرف ويمر مر الكرام فيخوض في شؤون اخرى ويستطرد ذكر النبوغ من جديد ويقول متى عهدنا نختر ونفرق بين الشعر والنظم الى غير ذلك.

واذن فانت يا أستاذ تقر بان تلك القطع ليست من المختار ولا من الشعر في شيء وانما هي نظم ونظم مختل ركك لا قيمة له من الناحية الادبية مطلقاً فاحري ان يكون مما يفخر به المفتخرون.. ولذلك تركه صديقك القديم ولم يشوه به مجموعة امراؤنا الشعراء.

واصبح من خواص الاستاذ كذلك - ويا لالاسف - اذا اعوزته

الحجة والدليل والبرهان - وهي دائماً تعوزهم ان يستعيض بالسب
والشتم والقذع مما يدل على خلق نبيل وتربية عالية ونشأة
صالحة وسيرة حميدة. ونحن اذا فكرنا في هدايته من حيرته
ورده الى صوابه والجواب عما يقع له من خلط وخبط فاننا
لا نفكر ابدا في رد هذه الشتائم عليه ما دام عندنا ما نقول وما
دامت الحجة لا تعوزنا في شيء (وانما السب سلاح العاجز):
فالיום قد بت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والايام من عجب
ونورد اولاً حكاية لطيفة، تناسب العنوان الجديد (ما
احق الشوها ان تتقنع) الذي عوض به العنوان السابق:

ذكروا ان البومة قالت لاولادها ان لنا وجوها صباحا
تعشي اعين الناظرين فلذلك لا نظهر بالنهار. فلما جاء الليل
وكان القمر باسطاً رداؤه الفضي على الارض نظر الاولاد
وجوهم في بركة ماء فرعبوا فقالوا لامهم اين الوجوه
الصباح التي ذكرت فقالت لهم وهي اسفة ان حسننا
عربي!...

فليت شعري ماذا يجدى بومة حسان المجذومة اذا
نظرت وجهها في ابي رقراق ان تتقنع وحقها ان (تتخبع)
كأخواتها منشدة مع الخطيئة قوله المائب:

ارى لي وجها قبح الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله!
ونورد ثانيا ان صديقنا الناقد لما رأى نفسه تورط في
حباله هذه المناقشة وكان وعد القراء بأنه سيصطاد وأنه يعرف

كيف يصطاد، لم يسمعه إلا أن ينحى مقالاتنا من الجريدة ويهد
لذلك أولا بحذف التقرير الذي كتبناه على حاشيته وهو الذي
ضمنه صدر المقال الثالث وثانيا بحذف كلمة (كل مقال
جواب) من آخر مقالنا الثاني لاجل إيهام القراء أننا عينا
بجوابه، وثالثا بعدم نشر مقالنا السابق كله ورابعا بإقفال باب
هذه المناقشة بعد استكمال رده على مقالاتنا الأولى. وكان من
الحق والطبعي أن يدع لنا مجالا للجواب عن مقالاته كلها
فانه كان أول متكلم فيجب أن تكون الكلمة الأخيرة لنا.
.. ولكنه كان قد وعد القراء أنه سيصطاد وأنه يعرف
كيف يصطاد فما هو قد اصطادنا ببراعة تقصر عنها براعة (طرطران)
الذي كان يوثق له الصيد ويرميه فلا يصيبه ..

ثم نورد ثالثا أن حضرة الناقد - مع التصفيق له والاعجاب -
ما زال يستدرك علينا شعرا لم نذكرهم. ولقد فاتته - كما قال -
أن يستدرك شاعرا آخر اصطدم به أخيرا، ونحن بدل مناقشته
في هذا الشاعر نذكره بأعظم أمير شاعر كان يجب أن
يستدركه علينا من أول وهلة، وهو مع هذا التتبع والاستيعاب
وهذه الاحاطة والشمول لم «يشب» إلى ذهنه ولا وثب هو إليه
وان كان أصحاب الذبول وثابين، ولهذا الأمير بيت مشهور
من أبرع الشعر لا يقصر عما ذكره الناقد في ذيوله، لانه
كان في الذروة من فصاحة اللسان ونصاعة البيان على
العكس من وزيره الذي كان بليد الذهن عقيم الفكر فلذلك

لم يدرك ما في بيت الامير من بلاغة نادرة وشاعرية عجيبة.
وهذا هو بيت الامير (دحو) :

ايها الفقيه المزدغي عن الصلاة لا تغفل

وكان الفقيه المزدغي هو وزير الامير وقد زعم ان
البيت غير متزن فاجتاز الامير وامر به الى السجن ثم فكر
بعد ذلك في بيته البديع وقال حقيقة ان البيت غير متزن
فجعله هكذا:

ايها الفقيه المزدغي عن الصلاة لا تغفل غ

واستدعى وزيره من السجن وعرضه عليه قائلها هو ذا
البيت قد صار متزنا مقفى فما ذا ترى؟ فما كان من الوزير
البليد الا ان اجاب بقوله: ردى الى حبسي! ...

فليسجل الاخ عبد الرحمن هذا الامير الشاعر في طاعة
امرائه الشعراء فما احدثهم بأولى منه ولا احق بالذكر والتنويه!
وبعد هذه المقدمة نقول لاديب بوقرون: احمد الله يا هذا
على ان ليس للادب محتسب، لا فقيه ولا منتسب والا لكان
صرفك الى الكتاب، من بين كرام الكتاب، امن يقيم نفسه
مقام الاديب الناقد يجهل عدم الانسجام بين القطعة الخالدة
(لو مد صبري) وما زيد عليها من بيتي (وكيف يصبر) ولا
يقف عند هذا الحد حتى يتصرف فيها بالتقديم والتأخير وفي
نصرفه هذا اقرار بعدم الانسجام فيجعل بيت وكيف يصبر ثانيا

لميت لو مد صبري ذلك البيت الذي يغرق في خضمه العظيم
الف بيت من باب وكيف يصبر...؟.

امن يتصف بالادب والنقد يروي الابيات مشتملة على
عيب الايطا ولا يفظن له حتى ينبه اليه فلا يجد سبيلا الى
التخلص الا المراوغة ونكران ان تكون تلك هي الرواية وقد
نقلها هو بنفسه كذلك، فما ذا تهما الرواية بعد ان اثبتنا
انت نفسك معيبة، وهل اذا وجدت سليمة عند المرزباني
يكون ذلك شفيعا لك ومبرئا من عدم مؤاخذتك بعيب الايطا
الذي رويتها به ..؟..

امن يتحكك بالادب والنقاد لا يجهل من هم القداما من
الشعرا ويجعل ابراهيم المؤبل منهم؟ وهل في المغرب من
يعد في طبقة الشعرا القداما؟ فيا ضيعة الادب وتاريخه عند
استاذ آخر الزمان!

امن يتكلم في الادب وتاريخه ويحاول ان يكون له
رأي في الادب المغربي يجهل اعلام ادبا المغرب ويختلط
عليه الامر بين من تأصل في الاندلس ومن اقام فيها مدة من
الزمن فهو يستنكر ان يكون الاستاذ ابو بكر بن شبرين
مغربيا - كما عددناه في النبوغ - لكونه اقام في الاندلس
زمننا ما ويتكي عليه ليعد الاديب ابراهيم المؤبل اندلسيا كما
ادعى في تعليقه، واذن فهل يكون ابن رشد وابن طفيل وابن
زهر واضرابهم مغاربة..؟

امن يسف الى ان يعتقد ان ذوي النسب الواحد يجب ان يكونوا من بلد واحد فكل ادريسي مغربي ولو ولد وعاش ومات في الاندلس - يصح ان ينتمي الى اسرة المؤرخين والنقاد ..؟ اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

كيف عميت يا اديب بوقرون عن جمال الدعوة الناصرية ولم تدرك ما فيها من بلاغة وسحر بيان وقوة اسلوب وجو شعري مؤثر يستولي على المشاعر والقلوب؟ ..

كيف عميت يا صاح عن جمال البيتين (الله يلفظ بالعباد) وحسن موقعهما فيما قिला فيه واحكام نظمهما ولطف مسلكهما لتضمين الاية الكريمة التي زادتهما جلالات وروعة ؟ ..

كيف عميت عن جمال البيتين (الاهي سألتك بالمصطفى) وما فيهما من حسن التوسل وادب الدعاء وإشفاق هذا العبد المنيب الى الله من الخزي والعذاب يوم القيامة وكل ذلك في رقة وطبع واقتنان اخاذ؟ ..

فان كنت لا تدري فتلك مصيبة وان كنت تدري فالمصيبة أعظم لقد ظن اديب بوقرون (وبعض الظن اثم) اننا ما عينا بعض الابيات التي استبدرناها علينا وقلنا اننا تركناها قصدا لتفاهتها وردائها الا من اجل كون موضوعها هو الدعاء والابتغال والتضرع. ولا، وسمعته الادبية التي بقيت بمنجاة من الدوس، فان الدعاء موضوع شريف حسبه انه ورد فيه الحديث الصحيح (الدعاء مخ العبادة) وقول الله تعالى (قل ما يعبا بكم

ربي لولا دعاؤكم) وضمنه البغدادي في الوترية فقال:
... فلولاً الدعاء ما كان بالخلق يعبأ... فلو كان الدعاء بمجرد
مما يعاب به الكلام لكانت هذه النصوص نفسها خارجة عن
نطاق الادب ومعدودة في غير باب من الكلام البليغ.

لكن الحقيقة هي ان الدعاء من موضوعات الكلام
الجميلة وانما يلزم ان يتناوله اديب مبدع فيبحث الوجدان
والخشوع من مكانتهما في القلوب، ويهز المشاعر والنفوس
هزاً عنيفاً فمن باك على ما فرط في جنب الله، ومن تائب
نازع عما اوبقته فيه نفسه الامارة بالسوء الى غير ذلك من انواع
التأثرات بحسب اختلاف الحالات واي اثر محمود يراد من
ارفع انواع الادب ابلغ من هذا الاثر؟..

هل قرأ الاديب الكبير الذي يحسب ان الادب انما هو
حياة الحب والمدام الدعوة الناصرية مرة واحدة بهذه الروح
وهذا الاعتبار ليرى ما فيها من آيات البلاغة وسور الابداع!..
هل في الوجود من له مسكة من الطلب فقط (لا الادب)
من يقرن هذه الدعوة الفذة او الابيات الاربعة السابقة الذكر
بالذيل الذي يتمسك به صاحب الذيل وهو (وارغب خالقي في
العفو عني) ويرى ان بينهما مناسبة ما حتى يسوغ ذكره معها؟
نعم كان يجب ذكره معها لاطهار ما في تلك من الروعة
والجمال وما فيه من الضعف والاختلال. ويكفي اللحن
الواقع في اول كلمة من هذا الذيل وهو قوله (وارغب خالقي)

لنبذه وعدم الالتفات اليه فما بالك بما يعده من التفكك والانحلال:

ينادي ربه باللحن ليث لذاك دعاؤه لا يستجاب

وكما قلنا ان الناقد اصبح من خواصه الخروج عن الموضوع فهو قد ترك الجواب عما توجه عليه من هذه المسائل وجعل يتعلق بكتاب النبوغ ويقول لما ذا ذكرنا فيه الدعوة الناصرية وأمثالها مما سبق بيانه توهمنا منه ان الدعاء ليس من موضوعات الادب ثم تعلق بأبيات القطار المذكورة في النبوغ وهي:

تسع أبى منها اولوا الاحلام والهمم السنية

الى آخرها جاعلا منها مبررا للذكر ذيله (وارغب خالقي) ومن يستطيع ان يفهم الحكيم توما انه يجهل ويجهل انه يجهل؟.. فليت شعري ما ذا يعيب اديب بوقرون من هذه الابيات الحكيمة النادرة؟.. هل اختل فيها شيء من ناحية الصنعة كما اختلت ذيوله المنبوذة؟ هل رابه منها هذا العدد المضبوط وتوهم لقصوره ان ذلك ليس من اساليب الشعراء والادباء فما قوله اذن في ابيات طرفة: ولولا ثلاث... وقول الشافعي:

ان المكارم اخلاق مطهرة فالعلم اولها والدين ثانيها

الى آخر العشرة .. ؟

هل الذي انكره منها هو ذكر الامامة وما اليها وقوفا مع المساطير ولكون ادب الدين والفضيلة والخلق لا يروقه؟ فيا ما اعظم فجيعة في العقل المستنير الحاكم على الاشياء باستقلال القادر قدر البيئات واختلافها وما ينتج عن ذلك الاختلاف من

تميز في التطور والتعبير! ومهما يكن الامر فما بال طويل
الذيل يستشهد بآخر بيت منها ويغزوه سداد حكمه وسلامة
مأخذه حتى ينسى السياق الذي اوردته فيه من الزرابة عليه الى
الازراء به على الغير:

فسد الزمان واهله الا القليل من البرية

هذا قول القصار وقال شاعر آخر:

فسد الزمان كما ترى من حاله وكذا عوائد آخر الزمان
وقال ثالث:

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان
فاين يرى القاري موقع البيتين من بيت القطار وقد ذهب
كل واحد منهما في طرف واخذ القصار بالفكرة الصواب؛ فليس
الزمان هو الذي فسد وحده ولا الناس جميعهم فسدوا ولكن
الانحراف وقع منهما معا وبقي بعد ذلك خير وان كان فيه
دخيل...

فسد الزمان واهله الا القليل من البرية
حكمة خالدة رقت على وصية عملية عظيمة وذلك هو
سر ايداعها في النبوغ في باب الوصايا والحكم؛ فيها لضيعة الاداب
المغربية بين الاهمال وسوء الفهم...

وبعد فما نرى الاخ عبد الرحمن الفاسي من خلال هذه
المناقشة الطويلة الا مثل جراب الكردي فيه كل شيء بزعمه
فلما فتش لم يوجد فيه الا كسرة خبز يابسة وقطعة جبن
وحبات زيتون.

كتاب الذخيرة لابن بسام

كان يوما سعيدا حقا، بالنسبة لي على الاقل ومن الوجهة الادبية بالخصوص فقد حمل الي صديق عزيز كتابين جديدين مما جاء به احد افراد البعثة العلمية الواردة من مصر احدهما مجموعة دواوين عربية. والاخر كتاب الاندلس المسماة لعبد الله عنان ثم بعد فترة وجيزة حظيت من طريق آخر بكتاب الذخيرة لابن بسام ذاك الكتاب الذي يهمني معشر الباحثين في الادب والتاريخ المغربيين كثيرا والذي طبع منذ أوائل هذه الحرب ولم يطلنا. وكنت انا قد طلبته بالفعل وقدمت ثمنه ولكن بغير جدوى ثم ما انتصف ذلك اليوم حتى بلغتني هدية من أخ حميم هي كتاب مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين لابي الحسن الاشعري في جزأين وثالث للفهارس طبع في اسلامبول بعناية المستشرق الالماني هـ. ريتير - فكان يوما سعيدا حقا بالحصول على هذه الكتب النفيسة من غير توقع لذلك في أيام الحرب هذه وانقطاع المواصلات.

وقد بدأت بقراءة كتاب الذخيرة وكنت كلما تقدمت في قراءته تذكرت ظرف ذلك الاخ الاديب الذي حال المنفى بيننا وبينه فانه كان يأتيني ويجد عندي بعض الجرائد والمجلات المصرية فيقول لي ان من يحمل لك هذه الصحف يريد ان يستميلك بها

لو حمل اليك كتابا من المطبوعات الجديدة لاستمالتنا جميعا
فأقول له حسنا. وما ذا تريد من الكتب فيقول كتاب الذخيرة
من اهمها. كان الله لك يا احمد ورد غربتك! فها هي الذخيرة قد
بلغتنا وها انا قد طالعتها ووددت لو امكنني ان ابلغك انها
ليست من الاهمية بالمكان الذي كنا نظنه ولا سيما بالنسبة
الى الادبيات المغربية فان حظها منها ضئيل جدا ولم يات بعد
الجزء الذي تعرض لها فنحكم له او عليه اذ ما بلغنا منها لحد
الآن الا الجزء الاول وقد استغرقه كله على ضخامته تراجم
اربعة من ادباء الاندلس ابن دراج القسطلي وعبد الوهاب ابن
حزم وابن شهيد وابن زيدون في بعض ادباء صغار وامراء من
عهد الفتننة.

ولزيادة التعريف بالكتاب نقول ان كتاب «الذخيرة في
محاسن اهل الجزيرة»، لابي الحسن علي بن بسام الششتريني
المتوفي سنة 542 قد ألفه صاحبه على نسق كتاب اليتيمة لابي
منصور الثعالبي وقسمه اربعة اقسام: فقسم لولاية قرطبة وقسم
لولاية اشبيلية وقسم لولاية بلنسية وقسم للطارئين على الاندلس
من مشارقة ومغاربة واخرجت المطبعة القسم الاول في مجلدين
ليس بيدنا الان منهما الا المجلد الاول.

وقد كان المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال يريد
طبعه استقلالا ثم تنزل عنه للجنة مؤلفة من كبار اساتذة الادب
في مصر وحسنا فعل فانه ما كان ينهض ينشره نشر علميا

وحدد اللهم الا ان يكون نشرا تجاريا رخيضا وان سمي - لكونه عملا اجنبيا - نشرا علميا . وسيرى القاري انه على قيام هذه اللجنة بنشر الكتاب لم يخرج كما يجب ان يكون فاحرى لو انفرد به مسيوليفي .

وقد الفت هذه اللجنة من بعض طلبة كلية الادب في الجامعة المصرية مع المسيو ليفي وهؤلاء كلفوا بمعارضة نسخ الكتاب وتهيئة النص الذي يجري عليه الطبع وتصحيحه ، ومن اساتذة الكلية احمد امين ومصطفى عبد الرزاق وعبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام وطه حسين مع ليفي بروفنسال ايضا وهؤلاء كان عملهم مراجعة النص الذي هيأته الجماعة الاولى وعرض ملاحظاتهم عليه وكان الدكتور طه حسين هو الذي كتب مقدمة الكتاب من بين هؤلاء وعلى كل حال فان اخراج الكتاب من الناحية الفنية كان بديعا للغاية وهو مضبوط بالشكل الكامل .

ومقابلة النسخ بعضها مع بعض فيه ذققة جدا بحيث كادت تكون في بعض الاحيان عديمة الفائدة لولا ما يحمل على اثباتها من الحرص على الامانة العلمية .

وانما نلاحظ ان التصحيح لم يكن كاملا بحيث وقعت في الكتاب اخطاء لغوية وأدبية كان بوجدنا ان يكون سليما منها . ولولا أهمية القائمين على نشره لما اعرفناها انتبهاها ولكن الخطأ الصغير يستعظم من الكبير .

ونشير الى بعضها ليلا يتوهم اثنا تلقي الكلام على عواهنه.
فمن ذلك كلمة (المفاتشة) ص 4 الظاهر ان ضوابها
المفاتشة لا سيما وقد عطفت على كلمة المباحثة فتناسبها من
حيث المعنى واللفظ. واما المفاتشة فهي كلمة لم ترد في اللغة
والغالب انها تصفحت على المصححين من كلمة المفاتشة التي
استظهرناها.

ومن ذلك في ص 9 قول المؤلف «جعل الله الدهر أقصر
ايامه والنجوم مراكز اعلامه، جعله المصححون اقصى ولا يناسب
مقام الدعاء الذي يريد منه الكاتب ان يكون هذا المدعو له
طويل العمر حتى ان الدهر كله يكون يوما من ايام عمره
ومن الايام القصيرة مع ذلك.

وفي ص 51 ضبط المصححون لفظة زفاته بفتح الزاي
وكذا في سائر الكتاب وهي بالكسر على المعروف وعليه
اقتصر في القاموس.

وفي ص 62 جاء هذا البيت اثنا قصيدة هكذا:

واملا سمع الدهر من سحر ما أُملي

وقد وقع فيه العروض سالما وذلك قبيح ولم يقع في الشعر
الا شاذا قليلا ولم ينبه المصححون على ذلك ولا على انه كذلك
في جميع النسخ الاصلية كما يفعلون في اقل من هذا.

وفي صفحة 71 وقع شكل مرضعة بفتح الميم وهي بالضم
ولعله غلط مطبعي فقط.

ومن ذلك كلمة عرس في هذه العبارة ص 128 «وطلق عرس الشعر ثلاثاً، ضبطت بضم العين وهو خطأ والصواب الكسر وهي العروس. ومن ذلك هذه الفقرة في ص 135 : «قبح الله زماناً يقرب الى اللئيم حناناً والى الكريم اذاناً» ضبط المصححون حناناً بالكسر يريدون به الفرس حيث رأوه في مقابلة الاثنان وهي انثى الحمار والصواب ان حناناً بفتح الحاء وهي المرأة الحصينة المتمنعة من العفاف والتصون قال حسان ابن ثابت في السيدة عائشة:

حسان رزان ما تزن بريئة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل
والموضوع ايضا يعين ذلك حيث ان الرسالة في امر مصاهرة.
وفي ص 140 قال المؤلف «فانه كان كالبحر لا تكف غواربه» وهو من وكف فجعله المصححون من كف وضبطوه بالضم والتشديد.
وجاء هذا البيت ايضا في ص 245 :

قالت اذا ماجئنا فائتنا ليلا اذا ما هجع السامر
ولكن سقطت منه ما بعد اذا الثانية وهو كذلك لا يتزن.
وهذا البيت ايضا في ص 262 :
مرض الجفون ولثغة في المنطق سببان جرا عشق من لم يعشق
ضبط المصححون لفظة سيان بكسر السين وتشديد الياء
يعنون تشنية سي بمعنى مثل وقد ابعدوا النجعة فانما هي سببان تشنية سبب كما لا يخفى.

وهذا البيت ايضا في ص 277 :
تثابت كي ابغى لدمعي علة وكم مع لوعاتي بغاء الثاؤب

ضبطوا بعا بكسر الباء وفتح الهمزة وعلقوا على البيت (كذا
 في الأصول) يعتون انه غير ضواب والامر على العكس فان البيت
 ظاهر المعنى لا غبار عليه ولكن اذا قري بضم با وهمزة بعا
 وهو الاسم من بغى الشيء يبغيه فالشاعر يقول انه يتثأب ليخفي
 سبب بكائه الحقيقي ويظهر ان دموعه انما هي بسبب
 التثأب ولكن كم يكفيه من التثأب لتعمية امره واخفا
 سره فهو قوله كم مع لوعاتي بعا اي طلب التثأب؟...
 وهذا البيت الرابع ض 285:

عشنا اليقين في بر الهوى زما

حتى رقي بنوانا طائر الشوم
 ضبطوا رقي بالراء وبكسر القاف من الرقي وعلقوا على
 العبارة بالاشارة الى انها كذلك في نسخة باريز وليفي
 بروفنسال وتيمور وهذا مما يظهر ان المصححين لم يكونوا
 يعتمدون في التصحيح الا النسخ اما العلم واللغة والعروض
 والادب فانها كانت منهم دبر الاذان على طريقة المستشرقين
 ونعني بهم المستشرقين القاصرين لا المتكئين فان هؤلاء
 بعد اعتماد النسخ المختلفة يرجعون الى النظر والتحقيق العلمي.
 وقد عرفت هذا من امر آخر وهو الاشارة الى مقابلة
 بعض نصوص الكتاب على بعض مطبوعات المستشرق ليفي
 بروفنسال كاعمال الاعلام والجزء الثالث من ابن عذاري
 فباستثناء هذين المرجعين من كتب التاريخ والادب الاندلسي
 لا تجد للمصححين اشارة واحدة الى مقابلة اخرى على كتاب

آخر اللهم الا ان يكون ذلك في بيت لساعر معروف يقابل
على ديوانه او نحو ذلك من العموميات، كأن العلم مقصور
على هذين الكتابين ومقابلة نسخ الاصل المطبوع عليهما .

وهذا امر يظهر لنا ان اصبح ليفي هو الذي كان يحرك
لجنة التصحيح او قل انه هو الذي وضع خطة العمل واشرف
على توجيهه. وهاك الان صواب اللفظة فانها زقا بالزاي والقاف
بمعنى صاح يقال زقا الطائر او الصدى يزقو قال :

فان تك هامة بهرة تزقو فقد ازقيت بالروين هاما
ومن امثالهم اثقل من الزواقي وهي الديكة لانها تصيح
سحرا فيتفرق السمار والاحباب.

فمعنى زقا بنوانا طائر الشوم صاح بفرقتنا الطائر المشؤوم
من الغراب او البوم ونحوهما.

وهذا البيت الخامس ص 316:

..... ارسل حليما واستشر ليبيبا
الراجح ان صوابه حكيما على حد قوله:

..... فارسل حكيما ولا توصه

ويحسن ان تنتهي عند الحكمة من هذه الملاحظات التي
قلنا انها صغيرة ولكنها بالنسبة الى الكبراء كبيرة. وبقيت
هناك ملاحظات اخرى يقتضي امر تحقيقها تعباً، وما لنا نتعب
انفسنا واسائدتنا الكبار يريحون انفسهم بالمرّة فلا ينظرون
حتى في هذه الجزئيات القريبة؟ ...

ديوان لمحات الامل للمقدم

ينتظم الشعر في سبكه العجيب كل الفنون الجميلة تقريبا، وبهذه النظرة انظر اليه دائما. ولعل غيري من المفتونين به ينظرون اليه كذلك اما الشعراء فلا ريب عندي انهم يقدسونه ويجعلونه فوق الجميع، وذلك سر اعتزالهم، وتيهانهم في اودية الخيال وبوهميتهم المحبة التي لا يبغيون بها بدئلا. فإنهم قد اكتفوا به عن كل ما يجذب غيرهم الى الاجتماع ومداخلة الناس، اذ يتحدثون اليه حديثا نفسيا ألد واشهى من كل حديث يمكن ان يتحدثوه في المحاضر والمجتمعات.

ويسمعون منه موسيقى روحية ذات انغام علوية تجعل موسيقانا نحب الذين لسنا بشعراء في نظرهم اشبه بأنغام الزنوج واصوات السنانير.

وهم يشاهدون فيه دائما متحفا مكتظا بالصور البديعة، والتمائيل الجميلة التي لم تختطها ريشة مصور، ولم ينحتها ازميل مثال؛ متحفا يكاد من بهر آياته الفنية يخاطب شاهده بما فيه، حتى ليستوى في التمتع بعجائب مصنوعاته البصير والاعمى والقريب والبعيد. فما لهم اذن لا يجتوون عالم العامة الذين ليسوا بشعراء، وينقطعون الى عالمهم القدسي الذي لا يلتقون فيه الا بكل نفس مهذبة قد صقلها السمو الروحي وكيفتها الاذواق الفنية المبدعة؟...

واذا قال شوقي مخاطبا لهم (انتم الناس ايها الشعراء) فانه مصيب وعلى حق في ذلك القول.

لا ازمع ان الشعر كله كذلك، فان الشعر طبقات؛ منه ما يهز المشاعر ويضرب على اوتار القلوب، ويكون تعبيرا صادقا عن عواطف النفس التواقية التي لا تستطيع التعبير. ومنه ما يبهج ويطرب ويكون كالملهاة يلامس شعورك ويداعب وجدانك من غير ان يعنيك بما لا يعنيك. ومنه ثقيل عث يغشى النفوس وتهاض منه القلوب. فلا كان ولا كان ناظموه. ولهذا قال الشاعر:

الشعر صعب وطويل سلمه اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه يريد ان يعربه فيعجمه

وما أحسن قول شاعر العراق صدقي الزهاوي:

اذا الشعر لم يهزرك عند سماءه

فليس خليقا ان يقال له شعر

وقوله:

حبذا الشعر اذا كان جميلا كالزهور

واذا كان شجيا كأغاريد الطيور

وقد خفيت هذه الحقيقة على بعض الناس فظنوا كل منظوم شعرا، بل حتى النظم لم يبق له عندهم وزن ولا اعتبار، فصار اعلى الكلام أدناه، والكلام الذي تمثل فيه الفن بجميع مظاهره هذرا وهرا من القول، والكلام الذي هو اشبه شيء

بالرياض النضرة المحصورة المزدهرة مثل وادي الجحيم ليس فيه الا القدر والعذاب، فكيف يرقى الشعر ويحيا الفن بين هؤلاء القوم؟...



وللشعر في بلاد المغرب عيبان، عيب في المعنى وعيب في اللفظ.

فأما عيبه المعنوي، فهو ما قصر الشعراء الشيوخ انفسهم عليه، من مواضيع مستكرهة لم يبق لها مساغ في اذواق الناس اليوم كالمدح والرثاء، وما الى ذلك، وخاصة اذا كان فيمن لا يستحق مدحا ولا رثاء وهو الغالب، واين من يستحقهما اليوم إلا ما ندر؟

وأما عيبه اللفظي، فهو ما يحاول الشعراء الشبان اقتحامه من مواضيع الشعر الحقيقية، ولكن لفظهم يقصر عن بلوغ ما يريدون، وكثير منهم يقصر لفظه ومعناه عن ذلك.

وحيث ان هؤلاء هم الذين يهتمونني لان نهضة الادب في هذه البلاد انما تكون على أيديهم، فإني سأخصهم بكلمة موضوعية. فأولا انا احيى فيهم هذه الروح السامية التي تحلق في الاجواء ولا ترضى بالارض بدلا من السماء.

وثانيا أود لو تطلعوا من الثقافة اللغوية والثقافة العامة حتى اذا تناولوا موضوعا ما من المواضيع الشاعرة التي يعلقون

بها، يؤدونه على اتم الوجوه سواء من جهة العمق والاستيفاء
في الفكرة او من جهة الاسلوب والبيان .

ولا اقول ان كل شعراء الشباب بحاجة الى نصيحتي هذه
حاشا وكلا فان من بينهم شعراء موهوبين تبشر بداياتهم الطيبة
بنهاياتهم الحسنة بل الحسنى !

ومن هؤلاء الشاعر النابغة السيد عبد القادر المقدم الذي
تقدم ديوانه الاول وباكورتة الادبية الى القاري، هذا الديوان
اول ما لاحظت فيه انه خال من عيوب العروض والقافية التي
قل ما خلا منها شعر ينشر في هذه الناحية الهبطية من نواحي
المغرب، حتى كاد ينشأ بين المتأدبين اعتقاد ان هذه الناحية
عقيم في الذوق الشعري والقريض المختار... وقد عرفت ان
شاعرنا تلقى حب الشعر عن والده الذي له بذلك مساس
وتمرس واستيناس فصقل ذوقه الفني وهذب سجيته الشعرية
منذ الصغر، وبذلك نشأ وهو شاعر «موزون»

ثم مما يلفت نظر القاري لهذا الديوان، هذه الروح
الوطنية التي تشيع في انحاءة. وهي تنبئ عن اخلاص عميق
وعاطفة مقدسة ان لم تكن هي الشعر فماذا تكون غيره!
وهاك نموذجا من وطنياته:

يا فتية الشعب يا مناه * من منكم يفقدي حماه!

اصابه الجهل في حشاه * فهو شقي بما عداه!

فهل رضيتم بما دهاه؟! * وهل تجلون من رماه؟!!

من بينكم يتبغي دواه * وانتم انتم رجاه!!

وهو مقطع من موشح

وخذ هذين البيتين من قصيدة:

يا ابن المغاربة الاشاوش انما في ميعة التكوين والاحياء
فتصفح الماضي فكل صحيفة لك سلم لتسمنم العليا
أما في الناحية الوجدانية الصرف والوصفية فقد اعجبني
منه ابيات كثيرة كقوله:

يهون علي احتمال الردى وليس يهون احتمال الفراق
ليالي الحياة تمر سدى اذا لم تكن في سبيل التلاق
بلوت الليالي الا غدا انا منه في لوعة واحتراق
وقوله:

بضة ناعمة في قدها آية الحسن تجلت للعيون
لو رآها عابد في مشيها تتهادى خر من فرط الشجون
كتب الحسن على اعطافها ها هنا توجد آيات الفنون
وهنا تدرك اسرار الهوى وهنا يعرف النهى مس جنون
وهنا معنى تسامى شأنه وهنا سر دراه العاشقون

وما الطف قوله في قطرات الندى:

قطرات الندى على ورق الزهر تدلت كعبرة من جفون
روعة زادت البلبل اشوا قا فغنت بدائع التلحين
وتدانت اشعة الشمس تلقى من حلاها عجائب التلوين
فأذابت بحرها قطرات كن تاجا في مفرق الياسمين

فتعالت انفاسها في سما الروض الى اصل مبدأ التكوين
وعلى الاجمال فان في الشاعر عبد القادر المقدم روح
مفت، وقد تمكن من الطينة المختارة وسيضع منها ابداع الآثار
وان له في دولة الشعر لمستقبلا زاهرا كما قال هو:
وآمالي لها دنيا فكم دوى لها صوت؟
وقد كدت ان انتقد عليه نظرتة الضيقة الى بعض
الاشياء مما يتنافى مع روح الشاعر التي تسع الكون بما فيه
ولا تكبر منه شيئا، فاذا بي ارى ان ذلك قاصر على القسم
الاول من مجموعة شعره الذي قاله في عهد التلمذة، وهو
طور من اطوار الحياة لا يكلف الانسان فيه بما ليس في
طوقه، بل ان انتاجا كإنتاج المقدم في هذا الطور يعد من
الفلق العظيم.



نهضة الشعر بالمغرب



ارادتني الانسة مركادير ان اتحدث الى قراء المعتمد عن نهضة الشعر في المغرب ... والانسة مركادير اديبة بفطرتها وشاعرة عربية الشعور فلذلك اطلقت على مجلتها البديعة ذلك الاسم الرمزي وجعلت من اهدافها ربط الصلة بين ادباء العدوتين والتعريف بشعراء الامتين فاننا اذ انزل على رغبتها فاتحدث الى قرائها عن شعراء المغرب؛ انما اساهم بقسط ضئيل في مهمة ادبية سامية عجز عن القيام بها رجال كبار وقامت بها احسن قيام هذه الانسة الرفيعة التهذيب.

وحديث الشعر والشعراء في المغرب حديث طويل يرتبط بتاريخ ادبي مجيد وبنهضة ادبية عامة في البلاد العربية التي المغرب جزء من اهم اجزائها ... فمن الوجهة التاريخية كان المغرب احد الاقطار العربية التي قام للشعر والشعراء فيها سوق رائجة وما لبث صدى الحانهم السحرية يتردد في اذن المشرق حتى لقد غبر زمان لم يبق فيه من يخدم دولة «ابولو» في العالم العربي وخصوصا ايام حكم الاثراك الا جنود مخلصون من ابنا المغرب العزيز ... واما ارتباط حديث الشعر في المغرب بالنهضة العربية الحديثة فذلك لان هذه الموجة التجديدية التي غمرت العالم العربي في اوائل هذا القرن فنبهت شعوره ونمت

احساسه وجعلته يغير نظرته الى فهم كثير من الاشياء، قد شملت المغرب ايضا وبعثت فيه شعور الاعتداد بالنفس والايمان بالذات فقام ينشد حياة العزة والعظمة ويغني امجاده الطائلة التي ما فتئت جبال الاطلس تشمخ تساميا بها وامواج بحر الزقاق تتراجع هيبة لها.

واذن فالشعر المغربي له اتجاه واحد معين هو حفز الهمم واذكاء المشاعر وتربية الارادة والحث على التضحية من اجل حياة الخلود فالشعراء يعتبرون كقواد مطفرين يقودون جيوشهم من معركة الى معركة حتى يربحوا معركة النصر الاخيرة. والشعر بهذا المعنى بعيد عن فهو مه الادبي الاصيل، فما جعل الله الشعر الارجع لصدى الابدية في مواكب الحياة وشعورا بالجمال في مجالي الطبيعة الفاتنة واستجابة لوعي الوحدة في الغاب وسحر الانس في حضرة حواء وهيماننا في اودية الجمال وشغفا بتلمح الخالق في وجوه خلقه واستماعا لصوت القدرة القاهرة في قصف الرعد وعصف الريح ولصوتها الحنون في زقزقة العصفور وخرير الجدول وتوقانا ملازما مدى الحياة الى العوالم غير المنظورة حيث تسعد نفس الشاعر وتتوالى فتوحات قلبه .. ولذلك فأنا اعتبر هذه الظاهرة التي تسيطر على الشعر المغربي اليوم، موقفة لا بد ان تزول او تضعف أمام النبع الفياض التي يتفجر من قلوب الشعراء

المغاربة الوجدانيين يوم يدرك الشعب بغيته ويحقق أمثيه من نهضته السياسية والاجتماعية الراهنة.

ومثل هذه الحال جرى في الشرق العربي بالضبط فان طلائع شعراء النهضة انما كانوا يتغنون بمجد الاسلاف وبالحياة السياسية العزيزة التي كانوا يؤملونها لشعوبهم فلما ادركوا من ذلك ما املوا فاضت ينابيع الشاعرية العاطفية من صدورهم وفتحت لهم ابواب من القول لم يكن لاسلافهم من شعراء العرب مجال فيها بسبب هذا الاتصال الذي وقع بين الشرق والغرب وامتزاج الثقافات وتلقيح الافكار وهكذا تسير القافلة نحو الهدف المنشود.

على ان هذا لا يعني ان خواطر الشعراء كلها وقف على الشعر السياسي فان ثم نفحات عطرية يعبق بها جو بعض الشعراء هنا وهناك. ومنها هذه التي تتحفنا بها مجلة المعتمد اونة بعد اخرى وهي خاصة بشعراء المنطقة الخليفية فاذا ولينا وجهتنا الى المنطقة السلطانية نجد امكانيات اكثر واستعدادات اكبر مما عندنا فاذا توسعنا ونظرنا في اطراف هذا المغرب العربي كله نجد ان هناك شاعرا موهوبا حقا سبق زمنه بكثير لا بالنسبة الى المغرب فقط بل بالنسبة الى العالم العربي اجمع وهذا هو أبو القاسم الشابي الشاعر التونسي الذي توفي في عنفوان الشباب ومع ذلك فقد جاء منه شاعر عاطفي

ممتاز راد أودية الخيال واسمع الارواح الهامدة أنشودة
البعث والنشور.

واني اقترح على المجلة ان تقدم لقراءها في القشالية
الجميلة في هذا العدد الخاص بعض أشعاره كما تقدم غيره
من شعراء العرب فان من الحيف ان تقابل شعراء اسبانيا
بشعراء جزء صغير من العالم العربي هو المنطقة الخليفية
من المغرب.



حرفة الادب



الحرفة بضم الحاء الحرمان وسوء الحظ. وقد اشتهر ان
الادب والفضل والعلم واوصاف الكمال هذه، قرينة الحرفة وان
اصحابها محرومون مقتر عليهم في الرزق عرصة للافات والمصائب
حتى صار الناس لا يستغربون فقر الاديب واعتماد الدهر اياه
بالنكبات، ويعلمون ما يصيبه من نائبات الحياة، دون ما يصيب
غيره من الناس، بانتسابه الى الادب وانتحاله لاسبابه كأن من
كان عاطلا عن هذه الحلية لا يصيبه شيء من ذلك مدى الحياة
ولا بد ان يكون راتعا في بحبوحة العيش الرغد الرخي.

وقال قوم ان هذه الحرفة قد تسامت الى مقام الخليفة ابن
الخلايف اعني به عبد الله بن المعتز لتعلقة بالعلم والادب
ونبوغه في الشعر والبديع حتى مات مقتولا كما هو معلوم
وقال فيه علي بن محمد بن بسام:

لله درك من ميت بمضيعة

ناهيك في العلم والآداب والحسب

ما فيه لو ولا ليت فينقصه

وانما ادركته حرفة الادب

لو بتشديد الواو وضما مع التنوين وليت بالضم والتنوين

ايضا اي انه كامل المعاني والادوات ليس فيه نقص فيقال عليه
لو كان كذا او ليته كان كذا وقوله وانما ادركته حرفة
الادب بالضم اي شؤمه وتعبه ولذلك قتل وعلل بعضهم ما
يكون فيه اهل العلم والادب من خاصة واملاق بان قاسم
الاخلاق والارزاق سبحانه وتعالى لما اعطى هذه الطبقة من
الناس العلم والفضل والادب والحكمة؛ حرما المال والغنى
واعطاهما الجهال تحقيقا للعدل وتسوية بين خلقه في القسمة
ليلا يختص فريقا بالمال وافضل من المال وهو العلم ويحرم
فريقا من النعمتين معا. وهكذا وقر في ذهن هؤلاء ان العلم
والمال لا يجتمعان وان الجد والفهم ضدان كما قال ابو الطيب:
وما الجمع بين الماء والنار في يدي

بأصعب من ان اجمع الجد والفهما

وقال الاخر:

تبا لرزق الكتبه تبا له ما أصعبه!
يلتمسون رزقهم من شق تلك القصبة

ويعجني قول بعض المشايخ في هذا المعنى مضمنا شطر
بيت من الفية ابن مالك:

العلماء كلهم من سادا او لم يسد لم يبلغ المرادا
فرزقهم مرخم منادى (كياسعا فيمن دعا سعادا)
الى غير هذا من الاقوال التي لو اردنا تقصيصها هنا لاطال

بهذا الكلام. وانما يهمني الآن ان اكر على هذه المزاعم بالنقض
 والابطال فما كان لها ان تحتل عقول الجيل الطالع من طلبة
 العلم وعشاق الادب وهي حديث خرافة ليس لها نصيب من
 الصحة وانما اولع بها الناس لتعليل الحوادث وتفسيرها بالحق
 والباطل كما اولعوا بنسبة الكوارث الى الدهر ولومه على ذلك
 ووصفه بالخبث والمنتقلب وما الى ذلك مع انه بريء من
 جميع ما نسب اليه براءة الذيب من هم يوسف عليه السلام،
 والا فكيف نقول في هذا النبي الذي قال (اجعلني على خزائن
 الارض اني حفيظ عليم) وقال الله تعالى فيه (وكذلك مكنا
 ليوسف في الارض ولنعلمه من تاويل الاحاديث) فلو كان
 العلم يتنافى مع المال والدين لا يجامع الدنيا لما آتاهما الله هذا
 العبد الصالح وقال سبحانه وتعالى في حق داود عليه السلام
 (واتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) وبين شمويل النبي
 لبني اسرائيل ان المال ليس هو سبب الرياسة والتقدم حين
 قالوا في طالوت (أنى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك
 منه ولم يوت سعة من المال)؟ قال: (ان الله اصطفاه عليكم
 وزاده بصطة في العلم والجسم والله يوتي ملكه من يشاء)
 وهل بعد الملك عز ورفعة شأن، فينالهما الانسان بالعلم والعرفان؟..
 ونحن قبل ان ننظر الى الادباء والعلماء المحرومين، ننظر
 الى الجاهل والصعاليك الذين احاط بهم البؤس من كل جانب
 وكتب عليهم الشقاء ضربة لازب فنجد انهم يفوقون عدد

الادباء الفقراء بعشرة اضعاف بل بما لا حد له من التضعيف.
وانما ذكرنا هذه العشرة على عادة العرب في ذكر السبعين
والمائة مثلاً وهم يريدون الكثرة والتعداد ولا يقصدون ذلك
العدد بنفسه. وما جعل الناس ينتبهون الى الاديب المحروم ولا
ينتبهون الى غيره الا لما له من مقام مرموق وقدر مرفوع فهم
يتقصون احواله ويعرفون ما زاد فيه وما نقص بخلاف غيره من
عامة الناس وصعاليكهم فانهم وان كان الحرمان شعارهم
والفقر دثارهم فانهم كالحيوان الاعجم لا يؤبه لهم ولا يهتم
احد بشأنهم .. وذلك نظير الكلمة النابغة تصدر عن مطلق
الناس لا يلقي لها احد بالا فاذا صدرت كلمة اقل منها شأنها
من رئيس كبير او ملك عظيم تلقفها الناس وتنالها الرواة
ونعتوها بالنعوت الفائقة وسجلت في دواوين التاريخ كأنها
وحي من السماء، فعلى هذا النحو يهتم الناس بفقر العالم وبؤسه
وشقائه دون غيره من طبقات الناس ويذهبون في تحليل
ذلك المذاهب المختلفة منها الصحيح ومنها الباطل كقولهم ان
السبب في خصاصته هو فضله ونبله ليس الا.

وأما كون ابن المعتز انما اصابه ما اصابه بسبب ادبه
وفضله وتميزه بهذه الحلية على غيره من الخلفاء وان ذلك
دليل على شؤم الاديب ونحس طالعه فيقال عليه ولم اصاب
القتل والتعذيب غيره من الخلفاء أو الملوك والامراء الذين
ليسوا بادباء وهم اكثر عدداً؟ بل لم نجا غيره من الخلفاء

والملوك الذين كانوا يتسبون الى العلم والادب والفضل مما
اصابه هو كالرشيد والمأمون وتميم بن المعتز الفاطمي واحمد
المنصور الذهبي وغيرهم. أليس الصواب ان الامر قضاءً وقدر
يجري على الاديب وغيره والكل من عند الله؟ وكما انه لا
علاقة بين الادب والحرفة كذلك لا منافاة بينه وبين الغنى
والمال والثروة.

فكم اديب صار كالنطف غنى وكان افقر من المذلوق
والادباء الذين كانوا يرتعون في بحبوحة النعيم قديما
لا يكادون يحصون وناهيك انه غير دهر على الدول العربية
كان لا يتولى الوزارة فيها الا اديب ممتاز وهذا صاحب بن
عباد في الشرق وابن زيدون في الغرب وخلافهما كثير
من الادباء الذين اثروا وتأثلوا المال والعقار بسبب الادب. وفي
العصر الحاضر يكفي ان نذكر شوقي وهيكل وطه حسين
لنعرف ان الادب هو سبب الثروة والغنى لا سبب الفقر
والحرمان وهذا في الشرق وعندنا معاصر العرب، اما اذا نظرنا
الى الادب عند الغربيين فاننا نجد الادباء اغنى من الملاك والتجار
الكبار بسبب رواج الادب وانتشاره كثيرا بين الجمهور
فتجد الشاعر او الكاتب يكسب من ديوان له او كتاب مبالغ
طائلة في كل طبعة تخرج من كتابه فما بالك اذا كان له
كتب عديدة وطبعت مرارا كثيرة؟ لا جرم انه يكون يتلاعب
بالاموال كيف شاء وينفق بغير حساب.

ومن ثم نعلم ان الله سبحانه لم يخص قوما بالمال وقوما
 بالعلم تسوية بين خلقه في القسمة وانما اعطى كما اراد
 المال والعلم قوما وحرم آخرين منهما معا واعطى فريقا العلم
 دون المال وفريقا آخر المال دون العلم لحكمة يعلمها هو
 سبحانه وتعالى. واذا كان هذا حكم المال فكذلك الجيد بفتح
 الجيم اعني الحظ والسعد والنصيب ليس مصروفا عن ذوي الفهم
 كما زعم المتنبي فكم من بليد محروم وفهم محظوظ. والامر
 في ذلك اعتباري محض فان الناس لا يستغربون نجاح الحاذق
 الفهم وفوزه ولكنهم يستغربون كثيرا ما يصيب الغبي القدم
 من نجاح قليل في بعض المرات فيستعظمون ذلك عليه ويكبرون
 امره ويذهبون الى القول بان الجد قرين البلادة والسعد نصيب
 الاغبياء وهو كلام ملقي على عواهنه ويعوزه كثير من التحقيق.
 والخلاصة انه لا الادب ولا العلم يحرمان صاحبهما من
 الحظوظ الدنيوية وانه لا الجهل ولا الغباوة يكونان سببا في
 اسعاد المتصف بهما بل الامر في الغالب على العكس وهو ان
 اكثر العلماء واثاديين هم من الاغبياء والمستورين بخلاف
 اكثرية الجهال والاغبياء فانها هي التي تكون الطبقة الفقيرة
 في الامم كلها، ويظهر لنا ان الامر كله يرجع الى الجد
 بكسر الجيم والاجتهاد والنشاط والعمل فمن كان على
 جانب من ذلك اثري واستغنى وحصل على نصيب من الدنيا
 سواء كان من العلماء او من غيرهم ومن كسل وعجز افتقر

وحرّم فلا يلومنّ الا نفسه ولا يتهّم علما ولا ادبا.
وما اصدق قول الشاعر في المعنى:

الم تر ان العجز زوج بنته من ابن التواني حيث ساق لها مهرا
فراشا وطيثا ثم قال لها اتكني قصارا كما لا شك ان تلدا فقرا
نعم لزيادة تقرير نظران العلم والادب يكونان سببا
في الغنى ولا يكونان سببا في الفقر يمكن ان نعلل ما
فراه من حرمان بعض العلماء والادباء بانهم لانصرافهم بكنيتهم
وقلبهم وقال بهم الى ما هم بصدده من العلم والادب لم يبق لهم
وقت للاشتغال بجمع المال وتدبيره فلذلك يلزمهم الفقر والاحتياج،
والذي كان له من الجد والنشاط ما يقدر معه على طلب
الدنيا وعدم التفريط في العلم يحصل على النتيجة ويفوز
بالحسينيين معا والله الموفق.



ما هو احسن كتاب قرأته في موضوعه ؟..

وجه الي الاديب التونسي السيد مصطفى بن حميدة هذا
السؤال فاجبته بما يلي:

لا يمكن الجواب باطلاق عن هذا السؤال، وخصوصا لمن
كان مثلي على كثرة ما قرأ من الكتب في الموضوع الواحد،
لا تزال امامه لائحة طويلة بالكتب التي لم يقرأها في كل
موضوع. فانا اذا تمنيت ان اعيش طويلا، فانا اتمنى ذلك
لاجل ان استوعب ما اريد من الكتب. واذا كانت ثابت
البناني قال: «اللهم ان كنت اعطيت احدا من خلقك الصلاة
في قبره، فأعطنيها»، وقيل انه كشف عن قبره فوجد قائما
يطلي - فانا ادعو الله القادر الذي لا يعجزه شيء، ان يمتعني
في الحياة الاخرى بغرفة مطالعة، تجبى اليها ثمرات العقول:
من كتب ومجلات، وصحف ادبية، ودواوين شعرية قديمة
وحديثة؛ حتى اكون على اتصال تام بالحياة الفكرية في الدار
الدنيا قبل فنائها، وامتع نفسي في الجنة بعد فنا. هذه الدار
باعظم لذة روحية في نظري. واللذة الوحيدة في نظر الرازي
كما قال في جمع الجوامع: «وحصرها الامام والشيخ الامام
في المعارف»!..

ومن هنا اعتبر اني لم احط باي موضوع، فلا اعرف احسن كتاب فيه.

ومن وجه آخر فانه اذا كانت اكثرية الكتب مكررة لبعضها، فان كتباً كثيرة لا يمكن ان ينسحب عليها هذا الحكم؛ لانها تشتم البعض الآخر ولا تكرر. وهل يمكن للاديب ان يستغني بالعقد (ولا اقول الفريد فان مؤلفه لم يسمه بذلك) عن (عيون الاخبار)، او بهذين معا عن (الاغاني)؟ ..

لذلك فان تعيين كتاب واحد، في موضوع واحد والقول بانه احسن ما قرأت، يكون فيه تسامح كبير، وان شئت فقل ظلم كبير! ..

غير اني استثني من ذلك، الكتاب الازلي الخالد؛ كتاب الله الذي لا ياتيهِ الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهذا الذي اقول فيه بدون تحفظ انه احسن كتاب قرأته بل حفظته ولم ازل اقرأه منذ الصبا حتى لا احصي كم مرة ختمته. ودائماً اجد فيه شفاءً للنفس، وغذاءً للفكر، وشرحاً للخاطر، ونوراً للبصيرة. لا ادري هل ذلك لانني مسلم، وايماني بالقرآن ايمان عميق، وهو اول كتاب قرأته على الاطلاق، واقتربت مدة حفظي له بذكريات جميلة وبريئة اعد منها ولا اعدّها؛ ام لما اجد فيه من معارف واسرار، يتمثل فيها كل ما قرأته من ابحاث فلسفية وادبية وخرقية وطبعية وغيرها في اسلوب يخلب اللب، ويستهوِي القلب؟ ..

على كل حال، الغاية التي من أجلها يقرأ الإنسان: وهي
لذة العقل، وتكميل النفس، هي ما اجد في القرآن دائما وابدا؛
ولذلك اقول: انه احسن كتاب قرأته واقرأه على الإطلاق!
وثاني كتاب، يحتفظ بمكانة مكيئة في نفسي وهو
الوحيد من الكتب المؤلفة الذي اكون قرأته مرارا متعددة،
كتاب (صحيح البخاري)، فهو كتاب دين وشريعة وادب
واخلاق وحكمة وسير ورقائق واخبار معاد. ويرجع بعض
اعجابي به لصنيع مؤلفه؛ ولذلك فهذا القدر لا يدركه الا من
درس حظا من علوم الحديث ودرس غير (صحيح البخاري) من
كتب السنة، والبعض الآخر لما في كلام النبوة من الخلاوة
والقبول وسذاجة الاخلاص وروح الطمأنينة وغير ذلك كما
قال القائل:

وما سمعت اذن كلاما ونغمة ألد وأشهى من حديث محمد
وانني لاعرف ابوابا فيه كلما قرأتها ابكي؛ واخرى
تضحكني، واخرى تهدي اعصابي. ولو كانت في اشد الاضطراب
واخرى تبعثني على الرجاء، ولو كنت في اشد حالات القنوط
واخرى! واخرى! ومن غير هذا فليس ثم كتب اقول اني
قرأتها مرتين او ثلاثا، اللهم الا كتب الدراسة، وما يكون في
نيتي ان اعيد قراءته حينما تمكنني الفرصة. ومن هذه الكتب
(سر تقدم الانجيلين) السكسونيين ترجمة احمد فتحي زغلول،
فان هذا الكتاب بصرني بكثير من الحقائق في تقدير الحضارة

العصرية بمقاديرها الحقيقية، وضرت اعرف قيم الثقافات المعاصرة، وما تؤثره في النفس والسلوك. واني وان قرأت بعده ابحاثا اخرى في موضوعه الا اني لا ازال اراه مجليا في هذا الباب.

وكتاب آخر، دائما اجعله على مقربة مني لاتمكن من مراجعته هو: (صيد الخاطر) لابن الجوزي، فهذا الكتاب مجموعة آراء مرسلة في العلم والتربية والدين والاجتماع؛ ولكنه كتاب مؤثر جدا، ومعين على تكميل النفس وتربية الارادة، وتكوين مبدأ سام لقارئه. وقد قرأته قبل مدة قريبة وكان ما يصادفني فيه من الانظار كأنه يعبر عما يجول بنفسي منذ سنين عديدة وان انس لا انس فضل مؤلفات الشيخ الامام محمد عبده والاستاذ الكبير محمد فريد وجدي، والسيد محمد رشيد رضا والشيخ مصطفى الغلايني، ورفيق بك العظم، والعلامة محمد كرد علي، التي بها امكنني ان اعرف قيمة الثقافة الاسلامية والحضارة العربية، واقارنهما بغيرهما من الثقافات والحضارات، واكون لنفسى بعض الافكار عما قرأته على الطريقة القديمة: من كتب التشريع الاسلامي وكتب الكلام والتصوف.

اما في الادب الحديث، والنقد والقصة، فمن احسن ما قرأته واستفدت منه كثيرا كتب العقاد والرافعي وطه حسين ولطفي جمعة وهيكل والمازني وزكي مبارك ومجلة الهلال

والمقتطف والرسالة... ولا اخص شيئا من كتب هؤلاء فانها
كلها جميلة ومفيدة.

بقيت المباحث السياسية، وتاريخ الامم الاسلامية ونهضاتها
ومما اقدمه على غيره في هذا الباب، كتابات جمال الدين
الافغانى، والكواكبى، ومصطفى كامل، والامير شكيب
ارسلان، ومحب الدين الخطيب، وصديقنا احمد توفيق المدني
ولا اختتم الكلام بدون ان اشيد بآثار فقيه الشمال
الافريقى العلامة المجاهد. المرحوم الشيخ عبد الحميد بن
باديس التسي كان لهما كثير من الاثر في توجيهي وافارة
الطريق امامي الى كثير من الخير.



هل الثقافة في أزمة ؟

اقرأ في هذه الفترة الكاتب الفرنسي جورج دو هاميل في كتابه (دفاع عن الادب) الذي اخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر في حلة عربية قشبية ، وهو يرى ان الكتاب في أزمة واذ يقول الكتاب يعني الثقافة ، لان الكتاب هو وسيلتها العظمى ، واذا كانت الثقافة وادائها الكتاب في أزمة فالخضرة مهددة بالاضمحلال .

ولتصوير هذا الخطر وتقريبه للذهن يفترض دو هاميل ان الورق الذي هو المادة الاولى للكتاب اصيب بأفة او مرض على حد تعبيره هو فانهدمت الكتب ونفدت من ايدي الناس الا يكون ذلك مدعاة للمتقهر والخمول والرجوع بالانسانية المهددة في حافة الجاهلية ؟ ...

نعم ! هذا هو مستقبل الكتاب . وقد أصبح مهددا بطغيان السينما والراديو والجرائد والمجلات عليه وصارت هذه المستحدثات العصرية تنافسه وتصرف وجوه الناس اليها وتحصل على المكانة التي كانت له في نفوس القوم فالكتاب الذي هو الجليس في الوحدة والانيس في الخلوة والذي يقول الشاعر في مجموعاتة المختلفة :

لنا جلساء لا يمل حديثهم الباء مافنون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم من مضى وفهما وتاديبا ورأيا مسددا

هذا الكتاب قد استبدت السينما بالساعتين اللتين كان
الانسان يقضيهما في الاستفادة منه والانقطاع اليه، وحينما
ياقي هذا الانسان من دار السينما متعبا مجهودا تقدم اليه آلة
الراديو تسلية جديدة من موسيقى واخبار واحاديث عابرة لا
تفيد علما ولا تكسب تهذيبا والجريدة في الصباح تغزو صاحبنا
قبل نهوضه من النوم، فلا تترك له مجالا لاحتضان الكتاب
والتفكير فيما يحويه من خطأ او صواب، اما المجلة فالاسبوعية
منها كالجريدة وذلك في كونها تزجيه للوقت وكما مهملا لا
ياخذ طريقه الى المكتبة بل الى الافران، الا اذا كانت هذه
المجلة موجهة توجيها ادبيا او علميا - وذلك قليل - فانها تبقى
واسطة بين الجريدة والكتاب ويمكن ان نحفظ بها في رفوف
مكتبتنا ونرجع اليها في الحين بعد الحين .

اذا فالى اين تسير الانسانية وهذه افكارها تتحجر من
عدم الاستعمال؟ وكيف يكون مستقبل الحضارة وقد قنع الانسان
بهذه التغذية العقلية التافهة؟ ...

أحاديث الراديو مشاهدات السينما، مقالات الجرائد
السطحية التي تقرأ في الميترو، وفترات الانتظار. والجلوس
على مقاعد القهوات أثنا صخب الجمهور ولغب الحضور، هذه هي

وسائل الثقيف التي يستبدل بها انسان ما بعد الحرب الذرية
الكتاب فالى اية هوة تقوده من الجهل والعمى وتبلد الذهن
وكثافة الاحساس؟ وبالتالي الا يكون مصير هذه الحضارة التي
ينعم بها الانسان اليوم الى الفناء والعدم فيما لو استمر اعراضه
عن الكتاب كما لو اصابته المكتبة العالمية افة قضت عليها
قبل ان تتمكن من انقاذها ! ...

وعرض دوهاميل للمشكلة هو من القوة بحيث لا يمكن
لقارئه ان يمر بها مر الكرام ولا يفكر التفكير الجدي فيما
تطلبه من حلول، وتقتضيه من تدابير، وهو يورد اثنا ذلك
بعض الشواهد على صحة ما يقول من حالة الادب والكتابة
واقبال الناس على القراءة في فرنسا فيقول ان الكساد قد عم
سوق الكتب ودور النشر تتعرض للخسائر الدائمة والتصدير لهذه
البضاعة قد قل بل انعدم مطلقا، فصار الاستهلاك لها قاصرا على
البلاد الفرنسية وحدها.

ويتخذ دليلا على هذا الكساد وضعف الاقبال على الكتب
هذه الاعلاذات الكثيرة التي يلجأ اليها الناشرون وينوقون
في صفاتها لاسترعاء نظر القاري الى الكتاب وهذا التوزيع
المسرف للكتب على باعة الدخان والنبيد ومحطات القطار
وغيرها لعرضه على الانظار وتسهيل اقتنائه لكل احد وهذا
المظهر ربما يفهم منه الانسان العادى ان الكتاب قد اكتسح
جميع الميادين وراج حتى خرج من محله المعتاد وهو المكتبة

الى كل محل والامر على العكس، اذ كساد الكتاب هو الذى
جعل الناشر يضعه بين ايدي الناس في كل مكان، علمهم يلتفتون
اليه ويقتنون منه نسخة في هذا المكان او ذاك.

ويدعم هذا النظر بما يتخذه بعض الكتبيين (في فرنسا
طبعاً) من وسائل لترغيب الناس في شراء الكتب كأن يقدموا
للمشتري هدية او هدايا بقدر ما اشترى من الكتب وعادة
تكون هذه الهدية شيئاً اخر غير مكتوب اي شيئاً مادياً لا
روحياً من جنس الكتاب وذلك كصابون الحلاقة ومعجون
الاسنان ونحو ذلك وبعضهم يقدم للزبائن شاياً ومشروبات
روحية، وهذا كثير في فرنسا فلذلك ترى الكاتب يستنكره
ويستدل بكل ذلك على الكساد والافلاس واغرب من هذا كله ما
يلجأ اليه بعض الكتبيين من وسيلة اهداء الكتاب من المؤلف
للمشتري ليحمله بذلك على الشراء، وذلك انهم يلتزمون
للمشتري حالة دفعه للثمن بعبارة الاهداء مخطوطة من المؤلف
فاذا كان امضاً ممثلة من فتيات هوليوود يساوي المئات وربما
الآلاف من الدولارات فهل يكون دو هاميل على حق في
اشفاقه من اختفاء الكتاب وقد صار المؤلف الى هذا الحد من
البوار؟

اما ان هذا مؤسف، ولكننا لا فتشأم لمستقبل الكتاب
الى هذا الحد، والراديو وان يكن صندوق الضوء كما
يسميه دو هاميل، فانه يؤدي للانسانية خدمات جلى في المكان

الذي لا يقدر الكتاب ان يعمل شيئاً، خذ مثالا الاميين، بل خذ الشيوخ والعجزة الذين ضعفت اعصابهم وقوة ابصارهم عن القراءة، فهو لا ليس لهم ملجأ للتسلية والتشقيف الا الراديو، والمؤلف نفسه يحكي حكاية طريفة عن عجوز لم تعد تستطيع ان تقرأ بسبب ضعف بصرها، وكانت سيدة مثقفة، فكانت تقطع ساعات فراغها في وجوم وانقباض حتى اهدى لها احد قرابتها آلة راديو فعكفت عليها، وانشرت نفسها، وكانت وهي تنصت الى الاحاديث المتنوعة تعلق عليها، وتأمر القارئ بقولها قف حتى انا مل، او اعد ما قلت، كانها تنصت الى قارئ بجانبها، ولكن انى لها ذلك والراديو لا يسمع ولا يتأنى؟.... وهذا هو عيبه في نظر دوهاميل الذي يناصر القراءة المتأنية التي تدعو الى التفكير ومناقشة الاراء والاخذ والرد.

على كل حال فانه على ما اخذت السينما، واخذ الراديو واخذت الجرائد من الرواد والمنصتين والقراء فان الكتاب سيبقى له اهله ومحبه وانصاره المخلصون، وهم الان موجودون بالفعل، لا تستهويهم هذه المستحدثات، ولا تاخذ من وقتهم الا ما فضل عن قرائتهم، وفي ظني ان اكثريه اولئك الذين يقبلون على هذه المخترعات هم من كانوا بطالين، بمعنى انهم لا يهتمون بالقراءة والكتاب والثقافة العميقة، وانما دأبهم غشيان المجامع العامة والاندية والمشارب، فلما استحدثت دور السينما عوضوها مما كانوا يرتادونه، فلم يكن فيهم من يعتد بانصرافه عن الكتاب.

ونرجع الى ما لاحظته المؤلف من كساد سوق الكتب في فرنسا وقلة التصدير، فلعله راجع الى ظروف الحرب، وروح الشك وضعف الايمان بالقيم الاخلاقية التي انبثت بسببها في مختلف الاوساط، ولعله راجع الى حروب الحصار التي كانت تقيمها الدول النازية والفاشيستية ضد كل الافكار المعادية والمبادئ المخالفة لمناهجها وطرق حكمها، فضلا عن صعوبة التبادل الثقافي بسبب نظام حصر العملة الذي يقضي به الاقتصاد المسير، او لعله راجع الى ضعف قيمة الانتاج الفرنسي من الناحية الادبية بسبب الانحلال الاجتماعي الذي تتخبط فيه العائلة الفرنسية او لعله ناشئ عن السمعة السيئة التي صارت لفرنسا في الخارج بسبب سياستها العدوانية في المستعمرات وغيرها، وقد يكون راجعا الى هذه العلل كلها. فما ندري ايها اولى واقوى في التأثير من غيره !..

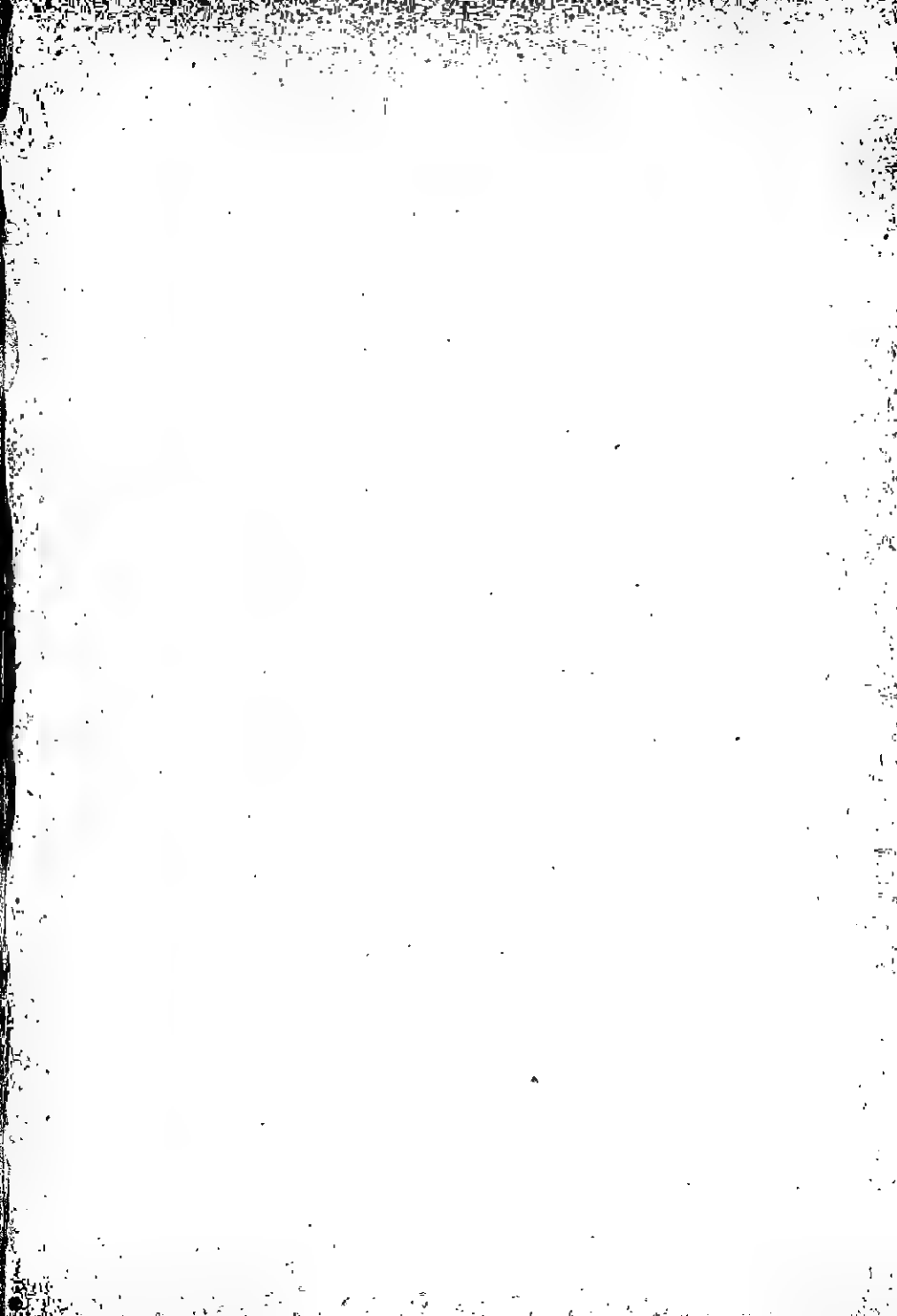
بقي ان نقول كلمة موجزة في المقارنة بين ما يحكيه المؤلف من وسائل الترغيب التي يتخذها باعة الكتب في فرنسا وبين النوم المطبق الذي يخيم على باعة الكتب عندنا مع ترك اعتبار الفارق بين الاستهلاك عندهم وعندنا، ولكن مع هذا فان اقبال القاري العربي على الكتاب الجديد القيم يكاد يكون تاما بحيث لا يرى محلا للتشاؤم وللتساؤل هل الكتاب العربي وبالبحري الثقافة العربية في أزمة؟



تصويبات

وقعت اغلاط مطبعية قليلة في الكتاب رأينا ان ننبه على
المهم منها ونذع غيره لفطنة القاري اللبيب:

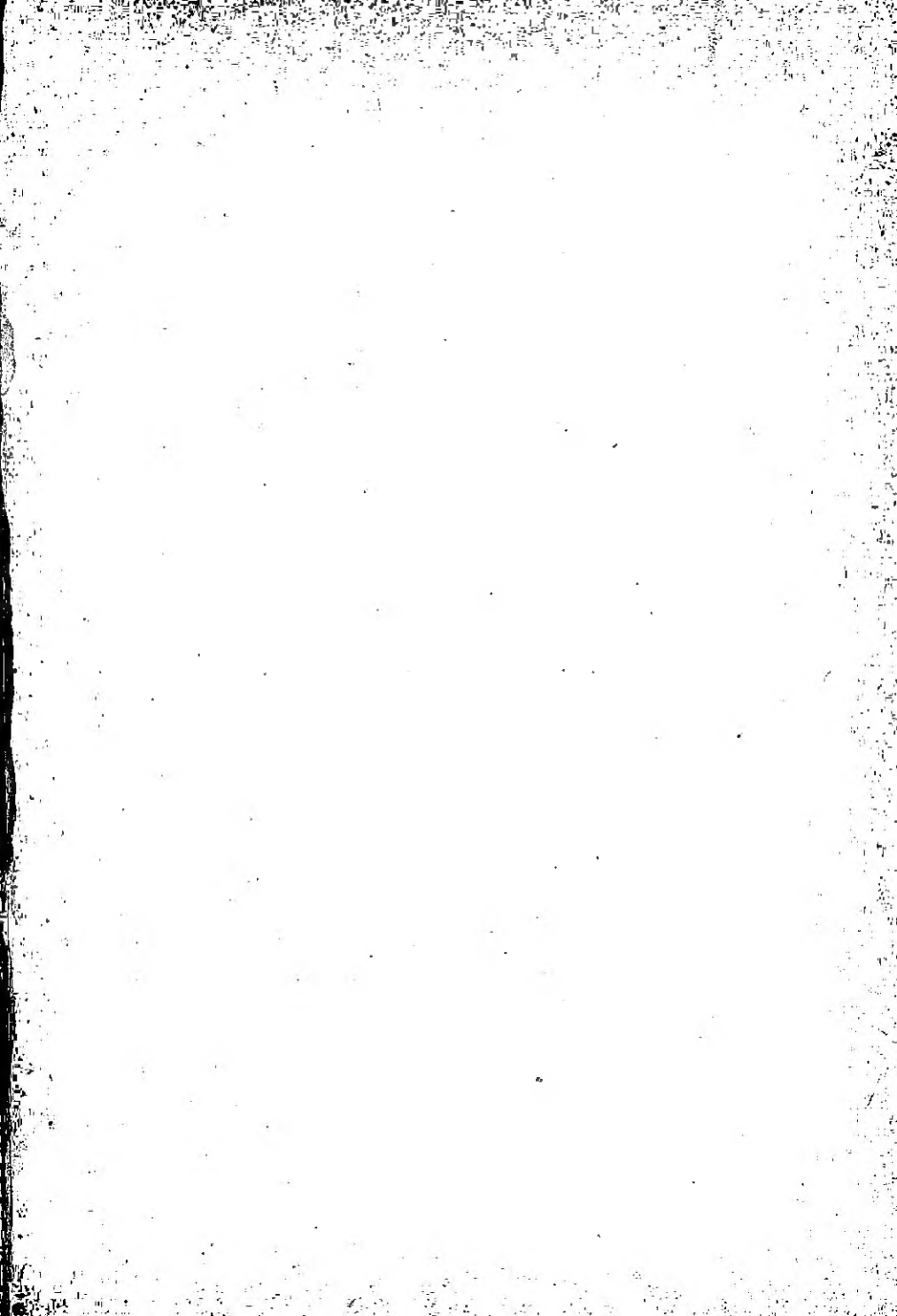
صفحة	خطأ	صواب
3	مائلة	مائلة
4	الادب	للأدب
14	في كتاباته	في بعض كتاباته
34	وتزوج	وتزوجها
48	بركر	بكر
»	عبد الحكيم	عبد الحكيم
66	الاسلامية	اللامية
84	صافية	صافيه
88	نفسه	نفسي
96	قطامني	قطاماني
105	اثر	اثار
160	يشره	بشره
163	وحدد	وحده
164	تصفت	تصحفت
175	الجمال	الخيال



فهرست

صفحة

3	واحة الفكر
6	المسلمون والنبي
12	تاريخ حياة معدة
16	فنون من القول يسبق اليها اهل الاندلس
28	جند صهيون
32	درهم بدینارین
35	السيد المختار
39	ذكرى الهجرة
43	في عيد الكتاب
55	المتنبي في رأي طه حسين
70	كتاب التصوف الاسلامي
77	القلب المنشعر
92	سرقة فنية
97	الصورة المعلقة
100	تحقيق مع صاحب الذيل والتعليق
133	ان كنت ربحاً فقد لاقت اعصاراً
161	كتاب الدخيرة
168	ديوان لمحات الامل
174	نهضة الشعر بالمغرب
178	حرفة الادب
185	ما هو احسن كتاب قرأته في موضوعه ؟
190	هل الثقافة في ازمة ؟



Gift
Delegation for Education
and Culture of Spanish Morocco

MAY 4 1949

ALBANY, N.Y.
MAY 4 1949

INSTITUTO MULEY EL HASAN



ABD ALLAH GUEN-NÚN

El oasis del pensamiento

TETUAN, 1948 - 1367

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY